

الأمير مكيافلي

بقلم
الأستاذ على أدهم

فلورنسا شديد التوفر على أداء واجبات وظيفته ، ولم تشب سلوكه في الاضطلاع بعمله شائبة ، وكان وطنياً محباً لبلاده ، وفياً لها ، حريصاً على مصلحتها ، وقد ضحى في بعض مواقفه بمصلحته الخاصة في سبيل آرائه ومعتقداته ، فالتناقص بين حياته وما اتسمت به أفكاره واضح لا خفاء به ، ولكن معرفة طبيعة العصر الذي عاش فيه والتجارب التي مر بها تكشف لنا أسباب تكوين أفكاره ، واستخلاص نظرياته .

ولم تكن حياة مكيافلي سهلة ميسرة ولم تخل من الآلام والمتاعب ، ولكنها كانت مع ذلك حافلة شائقة ، وقد أتيج له أن يرى شخصيات من أعجب الشخصيات التي عرفها التاريخ ، وعاصر نهضة حيوية غربية الشأن مقرنة بانطلاق تام في كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية ، وقد شاهدت إيطاليا في عهد الإحياء حرية لا تعرف الحدود في المسائل الجنسية ، وخروجاً على الآداب غير مسبوق ، واستهانة بالتقاليد المرعية والكوابح الأخلاقية ، وفي أفاصيص بوكاشيو ، وأغاني لورنزو مديتشي وتمثيلات مكيافلي نفسه شواهد على ذلك ، وفي الوقت نفسه كان هناك نزوع إلى الإجرام ، وعدم تورع عن الإطاحة بالحياة البشرية ، وكثر

مكيافلي في طليعة المفكرين السياسيين ، وقد شغلت أفكاره السياسية العالم منذ ظهورها في أوائل القرن السادس عشر الميلادي حتى اليوم ، وقد اختلفت الآراء في تقديرها واشتد الجدل حول تفسيرها ، فخصومه يرون أنه قد أساء الانتفاع بعقريته وأن كتابه المشهور المسمى « بالأمير » من الكتب المخالفة للآداب المناهضة للدين التي يجب تحريمها وإحراقها وإراحة الناس من شر ما احتوت عليه ، ويذهبون إلى أن الباعث الذي حداه على كتابته رغبته الملتوية في تبصير الطغاة المستبدين بأساليب السيطرة على الشعب وانتهاب ثروة الأغنياء ، وتجريد الفقراء من الشرف والكرامة ، أما أصدقاؤه والمعجبون به فيرون فيه الوطني الذي حفلت نفسه بحب بلاده والذي تطلع إلى الوحدة الإيطالية قبل أن يولد متزني وغاربيالدي وكافور بقرون عدة .

ويعزى سبب هذا التناقض الواضح في تقدير آراء مكيافلي إلى أن حياته وتجاربها التي تأدت به إلى تكوين أفكاره واستنباط نظرياته لم تعرف المعرفة الكافية ، وقد حال ذلك دون الفهم الصادق لآرائه ومراميه ، والرجل الذي اقترن اسمه بالخيانة والغدر والخذاع ونكث العهود كان في واقع حياته موظفاً في حكومة مدينة

محترفو الإجرام والسفاكون الفتاك الذين يرهبون المجتمع ويزلزلون أركانه ، ويتخذون الليل ستاراً لاستعمال خناجرهم في إزهاق الأرواح وإتيان المنكرات ، ولم تثر الجرائم الكثيرة التي كانت ترتكب ناثرة الرأي العام فقد كان يطيب لأهل هذا العصر أن يعيشوا على حدود الخطر ، ولم يكونوا مع ذلك همجاً مستوحشين وجهلة جفاة ، وإنما كانوا موفوري الحظ من الثقافة ومن محبي العلوم وأنصار الفنون ، ولكنهم كانوا يرون في اقتحام الأهوال ومعاناة الفظائع ومواجهة المتاعب والأخطار ما يثير الحيوية ويبعث على النشاط والحركة وفي بعض الأحيان تقترب عصور الحضارة المزدهرة والرخاء المادى والترف والبذخ بالخروج على القانون وعجز الإنسان عن السيطرة على شهواته ونزواته ، وقد كان ضعف الوازع الدينى وانهايار المعايير الأخلاقية وارتفاع شأن سلطان المال من السمات المألوفة في ذلك العصر ، وليس أدل على ذلك من كلمة مارتن لوثر نفسه التي يقول فيها « إن كل من يذهب إلى روما يشعر بأن عقيدته الدينية تترنح تحت الضربات التي تصيبه من جراء ما يرى هناك » ولكن برغم الفظائع والمنكرات والفساد المستشري كان لا يزال هناك بقية من الرغبة في الانتصار للدين ومحاولة إصلاح الفساد ومقاومة المنكر وكان يمثل هذه النزعة الراهب الإيطالى سافونارولا .

وقد شاهد ذلك العصر تصدع النظام الجمهورى فى إيطاليا وقيام الطغاة الحاكمين بأمرهم ، وقد جعلت الهزائم الحربية المتوالية وما تبعها من الكوارث والنكبات الناس تقبل حكم الجبايرة المستبدين ما دام يكفل لهم استقرار الأمن والإبقاء على الرخاء الذى ألفوه ، ولكن حب الحرية والنزوع إلى الاستقلال كانا مع ذلك تحالجان النفوس ، ويطالبان من الحين إلى الحين بحقوقهما فى الحياة والسيادة ، وقد تمرس ماركيافى بهذه الأحوال جميعها وأطال فيها النظر والتفكير .

وقد ولد ماركيافى فى فلورنسا سنة ١٤٦٩ أى فى عصرها الذهبى ، وكان عهد الإحياء قد ملأ المدن الإيطالية بالطرف الفنية الفاخرة وبدأ التفكير العلمى يوثق ثماره ، وأخذ المستكشفون يجوبون البحار ويخترقون السهول والأوعار لكشف المخايل وارتداد أقاصى الكرة الأرضية ، ولكن برغم الثروات المتدفقة ومظاهر الرخاء والازدهار كانت إيطاليا مقبلة على أزمات شديدة وأخطار وكوارث لا قبل لها بدفعها والخلاص من رزاياها ، وقد عاصرت حياة ماركيافى الوقت الذى كانت فيه جمهورية فلورنسا مشرفة على الهلاك ، وقد اشترك ماركيافى بوصفه وطنياً صميماً وخادماً للدولة مدينة فلورنسا فى الحوادث التي وقعت وشقيت بها مدينته ، ورأى ما حاق بالمدن الإيطالية من الدمار والخراب واستخرج من ذلك كله الأمثلة والخواطر التي أثبتتها فى مؤلفاته .

وفى إبان نشأته كانت فلورنسا لا تزال مستمتعة بالنظام الجمهورى ، وكانت أسرة المديتشى صاحبة النفوذ فى المدينة ولكن مع احتفاظها بالمظهر الخارجى للنظام الجمهورى ، ولم يكن لأفراد الأسرة ألقاب تميزهم عن غيرهم من أهل المدينة ، وكانت فلورنسا موفورة الثروة ومركزاً هاماً من مراكز التجارة والصناعة ولكنها مع وفرة ثروتها لم تكن قادرة على الدفاع عن نفسها وحماية حوزتها ، ولم يكن لها خارج أسوار المدينة أملاك من الأراضى الواسعة البعيدة الامتداد وقد قنعت بضواحيها المحدودة الكافية بمدّها بما يلزم من الأطعمة لتموين سكانها الذين كان عددهم فى تزايد مستمر ، ولم تكن خدودها مما يسهل حمايته والذود عنه ، وكان لها جيش من الجنود المرتزقة ولم يكن أهلها وسكان ضواحيها وأرباضها مدربين على استعمال السلاح وخوض ميادين الحرب ، وكانت محاطة بجيران ليسوا لها بأصدقاء وكانت أهم مشكلة تشغل بال أسرة المديتشى هى المحافظة على سلامة المدينة وتجنبها خطر أعدائها الرابضين حولها

ولا تحجم عنه ، وقد سبق لها أن حاولت قلب حكومة ميلان وعجزت عن ذلك ولكنها وقد شعرت بقوتها أخذت تتحين الفرص لإعادة الكرة والإيغال في سياسة العدوان ، وكان مما أغراها بذلك اضطراب الأحوال في ميلان ، فقد سقط بها الحكم الجمهورى واستولت أسرة سفورزا على أزمة الأمور ، ولكن المنافسات الداخلية بين أفراد الأسرة أضعفت مكانتها وزلزلت كيائها وجعلت سياسة العصر الإيطاليين يعتقدون أن ميلان لا تستطيع أن ترد أى هجوم قوى يوجه إليها .

وكان لورنزو مديتشي رجل دولة ممتازاً وكان الحاكم الحقيقى في فلورنسا ، ورأى بوضوح أن استقرار السلام في إيطاليا يقتضى المحافظة على توازن القوى بها ، ولما كانت البابوية تشكل له خطراً محتملاً لذلك رأى أن يقابل ذلك بالتحالف مع نابولى ، وهى الدولة التى تتاخم الأملاك البابوية من الناحية الجنوبية ، وبذلك استطاع أن يضع دولة البابا بين شقى الرحى ، فإذا هاجمت فلورنسا من الجنوب هاجمتها دولة نابولى في مؤخرتها .

ولما رأى لورنزو تزايد قوة فينيسيا وطمعها في الاستيلاء على ميلان خشى عاقبة ذلك لأنه يجعل فينيسيا من القوة بحيث تستطيع سحق أى دولة أخرى من دول المدن الإيطالية ، لذلك ابتدر عقد محالفة مع حكومة ميلان ، وهذا التحالف بين ميلان وفلورنسا جعل حكومة فينيسيا تكفكف نزواتها وتتوقف عن الاسترسال مع مطامعها .

وهكذا كانت السياسة التى سار عليها لورنزو الباهر كما كانوا يلقبونه وقد استطاع بهذه السياسة أن يجنب إيطاليا الحرب ويقر السلام ، ويحافظ على أمن فلورنسا ، وبموته في سنة ١٤٩٢ تداعى البنيان الذى شيده ، فقد زين الغرور لابنه الإعراض عن السياسة التى سار عليها أبوه ، ولم يكتف بييرو بنقض التحالف

وقد لعبت العوامل الجغرافية دوراً هاماً في تقدير مصير مدينة فلورنسا ، فقد كانت مدينة وافرة الثراء ولكنها من بعض الوجوه دولة ضعيفة يحف بها دول مدن أخرى وهى ميلان وفينيسيا والولايات البابوية ومن ورائها في الجنوب حكومة نابولى ، وهذه الدول الخمس كانت تكون إيطاليا ، ومن وراء جبال الألب كانت سائر الدول الأوربية المشغولة بأحوالها الخاصة ، وكان أشد ما تحشاه فلورنسا الخطر الذى يتهدها من الجنوب ، فقد كانت حدودها تتاخم من هذه الناحية الولايات البابوية ، وكانت روما وهى مقر البابوية تتوسط تلك الولايات ، وكانت هذه الولايات مجموعة من الولايات الصغيرة تحكمها سادة يملكون الأرض باعتبارهم نواباً عن الكنيسة ، وكان استبدادهم وسوء حكمهم مضرب المثل في الطغيان الذى يشقى به الناس ويرهقهم ويستلهم ، ومنذ عهد البابا سكوتس الرابع (من سنة ١٤٧١ إلى ١٤٨٤) أخذت البابوية توطد مكانتها وتدعم نفوذها وترغم السادة الثائرين في رومانا على الخضوع لسلطانها . وواضح أن تزايد قوة البابا وظهور دولة قوية في حدود فلورنسا الجنوبية كانا مما يهدد سلامة فلورنسا وذلك لأن أى توسيع لحدود الأملاك الجنوبية كان لا بد أن يودى إلى صراع بين فلورنسا والدولة البابوية ، والبابوات الضعاف قد لا يميلون إلى مد حدود أملاكهم ، ولكن البابوات الذين عاصروهم ما كيا فى كانوا من الطراز الطموح النزاع إلى فرض سلطته وتوسيع رقعة أملاكه .

وكان على فلورنسا أن تواجه في حدودها الشمالية الشرقية جمهورية فينيسيا المنافسة لها ، وكانت فينيسيا حينذاك أضخم ثروة وأقوى وأشد منعة من فلورنسا ، وكانت تجارة الشرق والغرب تمر بموانئها وقد مكنتها ثراؤها المتزايد من أن تمد حدودها حتى اشتملت على جانب كبير من الأراضي الإيطالية الشمالية ، وكان نظام الحكم بها مستقر الدعائم مما جعلها تطمع في التوسع

يخشون بأسه برغم اتساع أملاكه ، ولم تطمع إيطاليا في التماس المساعدة منه لأنها كانت تعرف مدى قوته وقصر حيلته فهو لم يكن عدواً يرهب جانبه ولا صديقاً يرجى معونته .

وقد سارت بريطانيا برغم انفصالها عن أوروبا في الطريق نفسه واستطاعت بعد انتهاء حروب الورد المعروفة في تاريخها أن تحزم أمرها وتلم شعبتها في ظل الأسرة التيودورية وعلى رأسها الملك هنري الثامن وتحظى بالوحدة واستقرار الأمن والسلم وتزايد القوة والسيطرة .

وكانت النكبة التي منيت بها إيطاليا هي حرمانها من الوحدة القومية فقد كانت منقسمة إلى دول مستقلة مختلفة تكاد تكون متساوية القوة ولذلك لم يكن هناك سبيل لإيجاد وحدة مكونة من نابولي والأملاك البابوية وفينيسيا وفلورنسا وميلان ، ولم يكن لإحدى هذه الحكومات من القوة ما يمكنها من أن تقوم بمهمة توحيد إيطاليا ، وكان يزيد الأمور تعقيداً وجود الولايات البابوية في وسط إيطاليا ، لأن التصدي للاستيلاء على تلك الولايات كان معناه حينذاك محاربة الكنيسة .

وما دامت إيطاليا محرومة من الوحدة فقد كانت السياسة السليمة تقتضي أن يكون بين حكوماتها المختلفة لون من ألوان التفاهم والتساند والتحالف لمقاومة هجوم الأجانب عليها ، وكان هذا هو هدف سياسة لورنزو ، ولكن ابنه أبي أن يتبع هذه الخطة الحكيمة ، ولما وجدت ميلان أنها قد حرمت من محالفة فلورنسا وأصبحت معرضة لخطر الاستيلاء عليها من فينيسيا اضطرت إلى أن تستنجد بالأجنبي فحالفت فرنسا ، وكذلك نابولي لما هاجمتها فرنسا وميلان عمدت إلى الاستعانة بإسبانيا ، ومهد هذا التحالف السبيل لتدخل فرنسا وإسبانيا في شؤون إيطاليا السياسية ، وقد جاءتا بوصفهما حليفين ، ولكنهما حينما وضع لهما ضعف الدول الإيطالية بقيتا

مع ميلان بل أخذ يتحالف مع نابولي لتدبير خطة لمهاجمة ميلان ، ولييان مدى حماقة عمله لا مفر من أن نلقى نظرة عابرة على أوروبا وتياراتها السياسية فيما وراء جبال الألب .

ففي أواخر القرن الخامس عشر أخذت تظهر في أوروبا الحكومات الملكية العظيمة الوطيدة الدعائم ، وبدأت السير في طريق تقدمها المعهود ، وكان لفرنسا الصدارة في هذا الاتجاه ، فقد انتهت بها حرب المائة سنة ونحورت من غزاتها الإنجليز وبدأ العرش الملكي الفرنسي يدعم كيانه ويثبت أقدامه ، وتزوج شارل الثامن بوارثة مقاطعة بريتانى ، واستطاع بذلك ضم هذه المقاطعة للتاج الفرنسي ، وكان جيشه الذي تمرس بمحاربة الإنجليز قد أصبح شاعراً بقوته وتفوقه تائقاً إلى خوض معارك جديدة ، وكانت إسبانيا قد تمت وحدتها بزواج فرديناند صاحب أرجون بإيزابلا صاحبة قشتالة ، وزادها قوة انتصارها على مملكة غرناطة الإسلامية في الجنوب ، وكان فرديناند رجلاً نهمازاً للفرص خراجاً من المعضلات بالحيل والدهاء ولا يتورع في اختيار الأساليب الملائمة لتحقيق أهدافه ، وقد زادت رحلات كولومبوس الاستكشافية ثروة إسبانيا إلى حد يتجاوز الخيال وبسطت سلطانها فيما وراء البحار حتى أصبحت أقوى منافس لفرنسا في القرن السادس عشر .

وكانت أوروبا الوسطى تحت سيطرة الإمبراطور مكسميليان وكان من أسرة الهابسبرج وقد انتخب إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة ، وكان بهذا الوضع يعد سيد الأمراء الألمان ومن الناحية النظرية سيداً على بعض أجزاء من إيطاليا ، وقد قضى حياته في الكفاح لتأكيد سلطته في إيطاليا وإخضاع الأمراء الألمان ، ولم يوفق في تحقيق هذين الهدفين لأنه لم يكن تحت إمرته جيش إمبراطورى مستوفى الأهبة يستطيع أن يفرض به سلطته ويملي أوامره وكلمته ولذلك لم يكن الأمراء

بوصفهما غزاة ومحتلين ، وإيطاليا التي كانت حينها ولد
ماكيافلي مكونة من مجموعة من الدول يربطها بعضها
ببعض المحالفات صارت حينها أدركته الوفاة نهياً مقسماً
بين فرنسا وإسبانيا ، وأصبحت أرضها ميداناً لصراعهما
على السيطرة .

ولم تقع هذه الأحداث في مستقبل نشأة ماكيافلي ،
فقد كانت فلورنسا في عهد سيطرة لورنزو سامية
المكانة ثرية بعيدة الشهرة وكان أهلها ينعمون بالحياة
الفاخرة المرححة التي امتازت بها أوروبا في عهد الإحياء ،
إذ كان يبدو أن العالم بحذافيره ينض بحياة جديدة ،
وقد اتسعت آفاق الإنسانية وبدأ أن المعرفة الجديدة
والاختراعات الحديثة العهد وكشف النواحي التي
كانت مجهولة من قبل سيكون خطوة بعيدة واسعة في
طريق التقدم الإنساني ، وقد طاف فاسكو داجاما حول
رأس الرجاء الصالح وكشف كولومبوس الطريق إلى
أمريكا وكان لدراسة أدب اليونان وعلمهم وفلسفتهم
تأثير ملحوظ في نهضة الفكر وارتفاع مستواه ، وكانت
إيطاليا حينذاك البلاد التي يستلهم العالم وحيا في العلوم
والفنون والآداب ، وليست هذه أول مرة في التاريخ
يجمع فيها التخلف السياسي بالازدهار الفكري والفني ،
وقد عاش في هذه الفترة بوتيشلي وميشيل أنجيلو
وليوناردو دافنشي وغيرهم من الشعراء والمثاليين
والرسميين ، وفي مدى حياة ماكيافلي سقطت الجمهورية
الفلورنسية وأصبحت إيطاليا فريسة للغزاة ولم يغن عنها
تقدمها في العلم وتفوقها الفني ، وقد رأى ماكيافلي ذلك
كله بعينه وأطال فيه التفكير ، ومما رآه وسمعه وجربه
ومارسه استمد مادة كتبه ، وكون فلسفته السياسية
مستعينا بمشاهداته وتأملاته ودراساته للأحوال الراهنة ،
ودراسته لتاريخ العصور السالفة ، وعقده الموازنة بين
الحاضر والماضي وأحوال بلاده وأحوال غيرها من
الدول المعاصرة والقوميات النامية .

وقد قال ماكيافلي في أبيات من الشعر نظمها حينها
تأمل ملاسبات حياته وخلاصه تجاريه « يدب في نفسي
ديبب الأمل ولكن اللوعة تزيد عذابي ، وأبكي والبكاء
يغذى قلبي الموجد ، وأحترق والنار في أغوار نفسي
لا تدركها الأبصار » ولكن حياة ماكيافلي برغم هذه
الآبيات التي تنضح بالألم والشكوى المرة كان فيها
ما يستحق أن يغبط عليه ، فقد تقلبت على عينه مشاهد
عجبية وقد رأى شخصيات تعد من غرائب التاريخ
مثل لورنزو دي مديتشي وسافونارولا وشيزاري
بورجيا ويوليوس الثاني وليو العاشر وغيرهم من نوادر
الرجال وكان يستطيع أن يستحضر في ذكرياته أحد
عطاء مشجعي الفنون الذين عرفهم الدنيا واحترق
الرجل الذي نظمهم أهل عصره وغير عصره في سلك
الأنبياء المرسلين ، والبابا الذي لم يتورع عن دس
السموم ونصب الشراك لجمع المال والإمعان في الفسوق
وابنه السفاك المبيح الذي ختمت حياته بالسجن والقتل
بعد أن تقاربت فيها المسافة بين العزة القعساء والهوان
المدل ، ورأى ظهور طائفة جديدة من الأمراء الطغاة
 وأنواعاً من الحكومات قائمة على نجاح الفتاك المغامرين
أو العدوان الحربي السافر ، وقد كلفه ولاؤه للجمهورية
الفلورنسية ما لا يطاق احتماله ولكن برغم الخطوب التي
حلت بساحته فإن حياته في هذا العصر أكسبته من
التجارب ما خلد اسمه على صفحات التاريخ ولا يمكننا
أن نقدر ما ينطوي عليه كتابه الخالد « الأمير » برغم
ما لحقه من سوء الشهرة إذا لم ندرك أن النتائج التي
استخلصها من دراسة حياته ودقيق ملاحظاته هي التي
سجلها في كتابه ، وقد كان مثله الأعلى الذي كان يرمى
إلى تحقيقه هو الاستقلال والحرية ، ولكنه رأى أن
الوصول إليهما يقتضي الخضوع لضغط الظروف
القاهرة ، فهو لم يبشر بأن الغاية تبرر الوسطة ، وإنما
كان يقدر صعوبة اختيار الوسائل الملائمة لتحقيق الغايات
فإذا كانت الغاية عظيمة ولازمة لحياة الدولة ولم يكن

هناك سبيل إلى تحقيقها بغير الخروج على العرف السائد فلا بأس في رأيه من مخالفة « الروتين » ، وقد أمضى حياته التي بدأت في سنة ١٤٦٩ في خدمة الدولة ، وكان موظفاً مشهوداً له بالذكاء والألمعية شديد الشعور بالتبعة الملقاة على عاتقه ، وكانت حياته المنزلية هادئة ، ولم يكن هناك ما يشعر أن اسمه سيصبح في مستقبل الأيام دريئة للتنقص والاهتمام وصب اللعنات .

وقد ولد في أسرة معتدلة الحال حسنة السمعة لها ماض في خدمة الدولة وكان والده برناردو ينتمي إلى إحدى الأسر القديمة العريقة وكان يملك بعض الأراضي في جوار سان كاسشيانو وبعض البيوت في أجزاء مختلفة من مدينة فلورنسا ، ولم يكن ثرياً ولكنه كذلك لم يكن فقيراً ، وقد تزوج من أرملة اسمها « بارتولوميا » وهي سليلة إحدى الأسر الفلورنسية القديمة ، ورزق منها أربعة أطفال ، وكان نيقولا الابن الثاني ، وقد مات أخوه الأكبر صغيراً ولذلك صار نيقولا وارث أبيه ، وكانت الطفلتان الأخريان بنتين .

ويصف لنا المؤرخ الإيطالي فينيلاري مكيافلي بأنه كان « وسيط القامة ، نحيفاً له عيان متوقدتان وشعر أسود فاحم وهامة صغيرة وفي أنفه قليل من الاحديداب وفيه محكم الإطباق » .

ولا يكاد يعرف شيء عن طفولته وتعليمه ونشأته ولكن ما تلقاه من التعليم أهله عند بدء دخوله في الحياة العامة ليشغل وظيفة في الحكومة بعد سقوط سافونارولا . وظهر سافونارولا - النبي غير المسلح كما كانوا يدعونه - كان له أثره في حياة مكيافلي ، فقد كان حاضر أمر هذا الرجل وهو يعمل على إيجاد « المدينة المقدسة » وقد استخرج العظائم من مصرعه كما تدل على ذلك كتاباته ، وعند ارتفاع شأن سافونارولا لم يكن مكيافلي من أتباعه ، ولما استمع إلى المواعظ التي كان يلقيها اقتنع بأنه دجال نهاز للفرص ، وقد

صار يعتقد فيما بعد أنه أضر بفلورنسا وأن آراءه لم تكن جدية بإيجاد الوحدة المأمولة ، وكانت هذه الوحدة هي هدف مكيافلي الأصيل ، والمعروف عن سافونارولا أنه كان رجلاً مخلصاً ومن الشخصيات العظيمة التي ظهرت في عهد الإحياء برغم سوء رأى مكيافلي فيه ، ولم يكن سافونارولا من أهل فلورنسا ، فقد جاء إليها من فرارا والتحق بنظام الرهبان الدومينيكيين لكي يفرغ للتبشير وتعليم الدين ، وقد اصطدمت مثله العليا بأهداف لورنزو مديتشي واتجاهاته ، وقد مات لورنزو قبل أن يتأكد من أن الراهب الصارم الحريص على الأخذ بالآداب المسيحية سيكون المعول الذي يهدم مجد أسرة المديتشي ، وقد ساء سافونارولا أن يعمل لورنزو على توفير أسباب اللهو لأهل فلورنسا ليتمكن ذلك من استلاب حريتهم وفرض سلطانه عليهم ، ورأى في ذلك إفساداً لأهل فلورنسا ، وقد شاركه فريق من أهالي المدينة سوء ظنه بمقاصد أسرة مديتشي ، فأخذ يعمل على تقويض مكانة هذه الأسرة وقوى نفوذه في عهد لورنزو وعظمت مكانته ، وكان بارعاً في الجدل قوى الحجة ودعا إلى البساطة والرغبة في تغيير أساليب الحياة السائدة وقد رأى مكيافلي في آراء سافونارولا مثالية مجردة غير قابلة لإصلاح العالم ، واستخلص من ذلك أن أساسى الدولة هما القوة والحيلة ، وكان يؤمن بأن فن السياسة متوقف على إدراك دوافع المصلحة الذاتية كما يرونها التاريخ وتكشف عنها التجربة .

وفي سنة ١٤٩٣ بدأ ليدوفيكو صاحب ميلان يفاوض الفرنسيين ويحثهم على المطالبة بنابولي فقد خشي هجومها عليه ، ولما كان بيرو بن لورنزو مديتشي الذي خلفه في القبض على أزمة الأمور في فلورنسا قد نقض الاتفاق مع حكومة ميلان الذي قام عليه حفظ التوازن في إيطاليا فقد وجد ليدوفيكو أنه لا مندوحة عن الاستعانة بشارل الثامن ملك فرنسا وإدخاله في الشؤون الإيطالية ، وقد تدفقت الجيوش الفرنسية على إيطاليا

عبر جبال الألب سنة ١٤٩٤ وتقدمت من ميلان إلى فلورنسا ، وألقى أهل فلورنسا تبعة الخطر الذى أخذ يهدد مدينتهم على كاهل أسرة مديتشي فقد جاء نتيجة لنقض بييرو للاتفاق التقليدى بين ميلان وفلورنسا ، واضطر بييرو أن يتسلل من المدينة ليمثل بين يدي شارل الثامن ، واتمس رضاه بتسليمه بعض الحصون المنيعه مما أثار أهل فلورنسا واضطره إلى أن يلوذ بالهرب وخلا الجح لسا فونارولا بعد سقوط أسرة المديتشي ، واختاره أهل المدينة ليكون مع النواب الذين أوفدوا للمفاوضة مع شارل التاسع ، ووافق شارل على الانسحاب من المدينة وأخذت فلورنسا تعمل على إيجاد حكومة جديدة .

والنظام الذى أنشئ تحت إشراف سافونارولا وإرشاده هو النظام الذى خدم ماكيافلى الدولة فى ظله وأوجد الآلة التى صار ماكيافلى جزءاً منها ، وقد ظل هذا النظام قائماً حتى عادت أسرة المديتشي إلى الحكم وتنكرت لمبادئه الديمقراطية ، والدرس الذى وعاه ماكيافلى من النظام الذى عمل على توطيده سافونارولا هو أن كل من يريد الإصلاح لا بد أن يكون له من السيطرة والقوة ما يساعده على فرض إصلاحاته ، وكان يعزو إخفاق سافونارولا إلى أنه لم يكن مسلحاً وهو يقول عنه فى كتاب الأمير^(١) «لذلك نرى أن الأنبياء المسلحين قد انتصروا والأنبياء غير المسلحين خاب سعيهم والشعب بطبيعته متقلب الميول ومن السهل أن نقنعه بقبول شيء ولكن من الصعب أن تحمله على المحافظة على هذا الاقتناع ، ولذلك على الإنسان أن يحسن تدبير الأمور حتى يستطيع إرغام الناس على الاقتناع حينما يتحولون عنه ، ولو كان موسى وقوروش وتيزيس ورومالاس غير مسلحين لما استطاعوا أن يحملوا الناس على الخضوع لشرائعهم ، وقد أخفق سافونارولا فى عصرنا لأنه حينما فقد الناس الإيمان به لم

(١) الفصل السادس من كتاب الأمير .

يستطع التثبت بالذين آمنوا به ولا إرغام الذين لم يصدقوا به » .

وقد أخفق سافونارولا فى إرغام فلورنسا على أن تكون «مدينة مقدسة» وضعف تأثيره وعجز عن استبقاء نفوذه وتآلب عليه الخصوم والأعداء والمنافسون وانتهت حياته بالشق فى أحد ميادين فلورنسا سنة ١٤٩٨ وبدأت حياة ماكيافلى الحكومية فى أعقاب ذلك ، فقد حلت وظيفة سكرتير مجلس العدلية الثانى ورشح أربعة من الذين تقدموا لشغل هذا المنصب ، ووقع اختيار مجلس الثمانين على نيقولا ماكيافلى ، وكان لهذا المنصب أهمية لأن هذا المجلس الذى كان مكوناً من عشرة أعضاء كان يتولى إدارة الشؤون الخارجية ويرسل السفراء والمندوبين لتنفيذ السياسة الخارجية الفلورنسية ، وقد أرسل ماكيافلى مبعوثاً فى مهمات كثيرة لأهم الدول فى مواقف خطيرة فى تاريخ فلورنسا ، وكانت هذه الوظيفة شديدة الملاءمة للمكانة ، وقد أفاد كثيراً من تجاربيها ، وقد أشار فى إحدى رسائله إلى أنه لا يعرف شيئاً عن التجارة أو الشؤون الاقتصادية وأنه لم يعبأ بالفن والشعر وإنما وجه عنايته جميعها إلى دراسة السياسة والكشف عن الدوافع الإنسانية الكامنة وراءها ، وقد هيأت له ظروف وظيفته لقاء الرجل الذى يمثل السياسة العملية التى لا تعبأ بالاعتبارات الأخلاقية ، فهو فى كتاب الأمير يشير إليه من الحين إلى الحين ، وقد وقف الجزء الأكبر من أحد فصول الكتاب الهامة على سيرة حياته ، وهذا الرجل هو شيزارى بورجيا ابن البابا إسكندر ، وقد أوفد إليه كثيراً ، وكان حاضراً أمره فى أحد المواقف الحاسمة فى تاريخ حياته ، وزاره بعد سقوطه وهو أسير فى أحد سجون روما وبحث معه أسباب سقوطه ، وإعجاب ماكيافلى بشيزارى من البواعث التى جعلته يقيم نظرياته السياسية على أساس أن ظروفًا معينة تقتضى عدم التخرج من القيام بأعمال معينة ، وكان شيزارى

الجيش المرباط وقد بذل في سبيل ذلك جهداً كبيراً وأبلى بلاء حسناً دل على فرط حماسه لوقاية مدينته وصدق وطنيته ، ووفق في إنشاء الجيش المطلوب .

وقد سار البابا يوليوس الثاني الذي جلس على كرسي البابوية سنة ١٥٠٣ على سياسة إسكندر بورجيا وقد صمم على سحق قوة فينيسيا وطرده الفرنسيين من إيطاليا ، وبعد أن حقق هدفه الأول مستعيناً بالفرنسيين على هزيمة فينيسيا قلب ظهر الحن للفرنسيين وأخذ يعمل على إجلائهم عن إيطاليا ، وكان على مدينة فلورنسا أن تختار بين صداقة البابا الطموح الرهيب وصداقة حليفها فرنسا ، وكان في فلورنسا حينذاك الكاردينال جيوفاني مديتشي بن لورنزو وكان له نفوذ وتأثير ، ولما كان صاحب الكلمة الفاصلة في حكومة المدينة حينذاك سودريني صديق ماكياڤلي وأشد خصوم أسرة المديتشي فإنه لم يجد مندوحة عن الانضمام إلى جانب فرنسا وأوفد ماكياڤلي إلى لويس الثاني عشر ملك فرنسا للمفاوضة وإبلاغه استمساك فلورنسا بتحالفها مع فرنسا ، ونقم البابا يوليوس على حكومة فلورنسا وأضمر لها الشر وبدأ مناصرة أسرة المديتشي .

واشتعلت الحرب بين فرنسا والبابا يوليوس الثاني ودفع البابا حرصه على التغلب والانتصار إلى مخالفة نابولي وفينيسيا وإنجلترا واختيار قائد إسباني لجيشه وبذلك أتاح الفرصة لإسبانيا للتغلغل في شمال إيطاليا ، وقد استطاع البابا إجلاء الفرنسيين عن إيطاليا ولكنه في الوقت نفسه عمل على استعلاء نفوذ إسبانيا في شبه الجزيرة الإيطالية ، وكانت إسبانيا حينذاك جزءاً من إمبراطورية الإمبراطور شارل الخامس ، وقد أسفرت هذه الحوادث عن سقوط الجمهورية الفلورنسية وعودة أسرة المديتشي إلى الحكم وطرده ماكياڤلي من وظيفته وابتعاده عن الحياة العامة وعكوفه على القراءة والاطلاع والتأليف .

يعتقد أن مصالحه تسمو على اعتبارات الصداقة والولاء ، وقد أوحى ذلك إلى ماكياڤلي قوله في كتاب الأمير « لو كان الحكام جميعهم طيبين أفاضل لكان عليك أن تصدقهم القول ولكن لما كانوا جميعاً غير أمناء ولا يرعون معك العهد والذمام فعليك أن تقابلهم بالمثل فلا تصدق معهم ولا تفنى لهم » .

وقد كان ماكياڤلي قبل كل شيء رجلاً وطنياً حريصاً على مصلحة حكومة مدينته وقد هدته تجاربه إلى نتيجة هامة وهي ضرورة إعداد الوسائل الكافية للدفاع عن المدينة وحمايتها من مطامع جيرانها الأقوياء الطموحين ، وكانت المخاوف تساور أهل المدينة لشدة شعورهم بخرج موقفهم ونقص وسائلهم الدفاعية ، وقد جعلته أسفاره في السفارات المختلفة التي عهد إليه بها يعرف مصدر قوة خصوم حكومة مدينته وقد عمل على إفادة بلده بهذه المعرفة ، وقد أدرك أن ضعف الحكومات من أسباب القضاء عليها وأن الاعتماد على الغير في الدفاع عن حوزة الدولة نكبة من النكبات ولذلك رأى أن سلامة فلورنسا تقتضي إيجاد جيش وطني وعدم الاكتفاء بالاعتماد على الجنود المرتزقة في الدفاع عن المدينة ، ولذا أخذ يعمل على إيجاد الجيش الوطني المرباط ، وكانت معظم المدن الإيطالية تعتمد في اندفاع عن نفسها على الجنود المرتزقة ، ولم يكن لمدينة فلورنسا قائد حربي ولا طبقة من السكان لحمايتها ولذلك كان موقفها في مهب الرياح ، ولما شرع شيزاري بورجيا في مد أملاك البابوية وشعرت فلورنسا بخطر تقدمه اضطرت إلى مخالفة فرنسا ، وعيب عليها محالفتها للأجنبي ، وقد أضربها ذلك حينما تقلص النفوذ الفرنسي في إيطاليا وغلبت فرنسا على أمرها ، ولكن وقوع فلورنسا بين فينيسيا التي كانت تناصبها العداوة وبين الأملاك البابوية كان هو الذي سوغ لها هذه الخطوة ، وقد اقنعت هذه الأحوال المضطربة الحبال بالمفاجآت الخطيرة ماكياڤلي بضرورة التعجيل بإنشاء

ولما استعادت أسرة المديتشي نفوذها في المدينة ألغت نظام الحكم القائم بها وجعلته في يد لجنة مكونة من أربعين عضواً معظمهم ممن اختارهم الأسرة ، وألغى مجلس العشرة والجيش المراتب وأصبحت المدينة خاضعة خضوعاً تاماً للأسرة ممثلة في الكاردينال جيوفاني مديتشي ، وكان ذلك كله يقتضي إقصاء ما كيافي أحد عمد النظام الذي ألغى ، والعجيب في هذه الظروف التي لا تغيب دلالاتها عن فهم رجل مطبوع على معالجة المشكلات السياسية والتفكير في البواعث الخفية الكامنة في الأفراد والجماعات أقول العجيب أن ما كيافي على حصافته وبعد نظره ظل يؤمل متحدياً اليأس ومتجاهلاً الأحوال الراهنة ، وأخذ يعمل على استرداد وظيفته ويستميل أسرة المديتشي إلى قضيته وعرض خدماته عليها ، والظاهر أنه كان مثل بعض الموظفين الذين يخالجهن الظن بأن خدماتهم لا يمكن الاستغناء عنها ، وأن وجودهم في مناصبهم لازم لحسن سير الأمور ، وأن خبرتهم العريضة تستدعي الإغضاء عما يتورطون فيه من أخطاء والإبقاء عليهم لمصلحة الدولة ، وقد أخفق ما كيافي في محاولاته ، ولم تكثف الحكومة الجديدة بفصله بل أمرت بنفيه مدة عام على أن يبقى في حدود دولة فلورنسا ولم يكن هذا كل ما خبأه له القدر ، فقد مات في هذه الفترة البابا يوليوس الثاني وخلفه في كرسي البابوية الكاردينال جيوفاني مديتشي باسم البابا ليو العاشر ، وكان لهذا الاختيار أثره المحتوم في مدينة فلورنسا ، واتفق في تلك الظروف أن دبرت مؤامرة ضد أسرة المديتشي واتهم ما كيافي بالاشتراك في هذه المؤامرة وألقى القبض عليه وعذب ، وقد برأه القضاء بعد ذلك وأطلق سراحه ، وأثبت ما كيافي أنه يستطيع احتمال الآلام وأن يواجه المواقف الباعثة على اليأس بشجاعة وقلب مشيع ، ولكن الشيء الذي لم يستطع احتماله هو ابتعاده عن الأضواء وإقصاؤه عن ميدان عمله الذي كان يعتقد أنه يستطيع فيه أن

يؤدي أجل الخدمات لمدينته ولم يكن عنده مانع أن يشغل وظيفته في ظل حكم المديتشي ما دام في ذلك مصلحته ومصلحة المدينة ، في زعمه ، ويمكن أن نستبين من ذلك مرونة المعايير الأدبية في طبيعة ما كيافي ، وربما كانت هذه المرونة وعدم الترفع عن المساومة ومجافاة الانتهازية من الأشياء التي يسرت له تأليف كتاب « الأمير » ، وقد كانت الدولة في رأيه صاحبة السلطان الأعلى وتوطيد أركانها يبيح المحظورات إذا استوجب ذلك ولم يكن هناك محيص عنه ، وقد أخذ بهذا المبدأ في قضيته الخاصة ، وصمم على ألا يحجم عن أي شيء يؤدي إلى عودته لتقلد وظيفته السابقة ، كتب إلى صديقه فيتوري يقول له « حاول إذا أمكن أن تجعلني في ذاكرة سيدنا (ليو العاشر) حتى أستطيع أن أكون نافعاً له أو لبيته بأي طريقة من الطرق » وكتب ضمن رسالة أخرى « ألا أستطيع الحصول على وظيفة ما إن لم يكن في فلورنسا فعلى الأقل في خدمة البابوية » وكان من أسباب تهافته في طلب الوظيفة وعرضه لنفسه في إلحاح ضيق أحواله المعيشية ، فقد كانت سنة قد جاوزت الأربعين وكان له زوجة وأربعة أولاد وابنة ، وبالرغم من أنه ورث ضيعة أبيه كان عليه ديون .

ورسائله في هذه الفترة تم على ما كان يعانيه من العسر المالي ، كتب من رسالة « إذا لم يفعل شيء من أجلى فلا معدى لي عن أن أعيش فقيراً كما جئت إلى الدنيا » ، وفي رسالة أخرى يقول « الموت أجمل بي وستكون أسرتي أحسن حالاً بدوني ، لأنني لست سوى عبء ثقيل على كاهل الأسرة فقد تعودت الإسراف ولا أستطيع العيش بدونه » وهذه الكلمة الأخيرة تكشف لنا جانباً من أخلاق ما كيافي وأسلوب حياته ، فقد كان الرجل كلفاً بالحياة حريصاً على الاستمتاع بطيباتها وقد انغمس في المتع المختلفة التي أولع بها أهل عصره ومع حبه لزوجته فإنه لم يكن وفياً لها ، ورسائله

إلى أضرابه من الموظفين تم على مغامراته وأقاصيص غرامياته ، ويرى فيلارى أنه كان يبالغ فى سرد أخبار هذه المغامرات ، ولم يكن ما كيا فى نفسه بوجه عام راضياً عن نفسه فى هذه الصدد ولكنه مع ذلك لم يستطع كبح جماحها ، وبرغم معرفته أن هذه الانطلاقات تنال من سمعته وتثير حوله الأقاويل فإنه مع ذلك كان يجد متعة فى رواية أخبارها عند مراسلته لأصدقائه ، وفى نوبات اليأس التى كانت تنتابه بعد إخفاقه فى الحصول على الوظيفة المبتغاة كان الجانب الوضع فى نفسه يبعثه على التورط فيما لا يليق بمكانته لينسى آلامه ويقاوم أحزانه ولكنه استطاع أن ينهض من كبوته ويتغلب على ما انتابه من الضيق واليأس ورأى أن الأليق به أن يحول مواهبه من ميدان السياسة الذى أخذت عليه فيه المسالك وسدت دونه المنافذ إلى عالم الفكر والتأليف وبدأ يكتب ، وفى منفاه فى سان كاسشيانا شرع يؤلف كتاب « الأمير » الذى بسط فيه فلسفته ونال به خلود الذكر .

وقد قدم الكتاب لأسرة المديتشى ، ولم يقدم الكتاب للطبع فى حياة مكيا فى ، ولم يعلق هو نفسه أهمية كبيرة عليه ، وقد أتبعه بكتابه « المطارحات » وكتاب « تاريخ فلورنسا » ، واستطاع أن يحصل على وظيفة أخرى وأوفدته نقابة تجار الأقمشة الصوفية فى مفاوضات خاصة بالشؤون التجارية ، وانضم إلى أحد الأندية الأدبية وألف كتابه عن « فن الحرب » واستدعاه البابا ليو العاشر وكلفه كتابة بحث عن إصلاح نظام الحكم فى فلورنسا وأخذ ينسى الكروب التى حاقت به وكشفت هموم نفسه وهدأت بلبله لأنه عاد إلى عمل يستطيع فيه نفع بلاده واستخدام مواهبه ، وقد ارتبط تاريخ حياته بتاريخ إيطاليا والانقلاب الذى أدى إلى ظهور القوميات العظيمة فى أوروبا ، فقد قدر له الاشتراك فى تلك الحركة ، وقد ختمت حياته فى الوقت الذى ضعف فيه شأن البابوية وكسفت شمسها ، وكما

بدأت حياته السياسية عند غزو الفرنسيين تحت قيادة ملكهم شارل الثامن لإيطاليا فكذلك كان ختامها عند ما تم إجلاء الفرنسيين عن إيطاليا وتوطد سيطرة الهابسبرج عليها ممثلة فى الإمبراطور شارل الخامس ، وقد ظلت هذه السيطرة حتى عهد زعماء حركة التحرير الإيطالية العظماء وهم متزبني وغاربيالدى وكافور .

وقد مات البابا ليو العاشر سنة ١٥٢٠ وفى عهده وصلت البابوية إلى ذروة نفوذها ، وخلفه البابا أدريان السادس ، وخلفه فى دوره سنة ١٥٢٣ البابا جيوليو المعروف باسم كلمنت السابع وهو البابا الثانى من أسرة المديتشى ، وكان سبب الحظ فقد كان عليه أن يتناول مشكلة الإصلاح الدينى والمتاعب التى نشأت من تطبيق هنرى الثامن لزوجته كاترين الأرجونية وكانت الطامة الكبرى التى منى بها الصراع الشديد الذى دارت أرحاؤه فى إيطاليا بين الإمبراطور شارل الخامس وفرنسيس الأول ملك فرنسا ، وقد وجد البابا نفسه مضطراً إلى مصانعة الدولتين العظيمتين المتصارعتين وظل حريصاً على مدينة أسرته محاولاً تجنبها ويلات الحرب ، ولما سافر ما كيا فى إلى روما ليقدم للبابا كتابه الجديد عن تاريخ فلورنسا تلقاه كلمنت بالترحيب ، وحدثه فى وسائل الدفاع عن فلورنسا وأعاد ما كيا فى على مسامعه رأيه فى تكوين الجيش الوطنى المرباط واقتنع البابا بأرائه وأمره بإعداد خطة للدفاع عن المدينة واختاره مستشاراً لهيئة جديدة مكونة من خمسة أعضاء لحماية أسوار المدينة ، وتوالت الحوادث فى إيطاليا خاطفة مسرعة ، وأدرك البابا بعد هزيمة الفرنسيين فى موقعة بافيا المشهورة أنه لا مناص له عن موالة الإمبراطور شارل الخامس وعقد معه هدنة ووعد بدفع تعويض جسيم واعتقد أنه بذلك قد ظفر بالسلامة وأبعد الخطر فسرّح قواته ، ولم يستطع بوربون قائد الجيش الإمبراطورى كبح جماح جيشه الذى كان يعمت البابوية لتأثر رجاله بتعاليم لوثر ووقع اعتداء على المدينة

وأتباعه في المعركة اليائسة لإنقاذ المدينة التي شاركوا
في حياها ماكيافلي :

كتاب الأمير

وصف لنا ماكيافلي حياته حينما بدأ يكتب كتابه
الدائع الصيت بقوله « حينما يقبل المساء أعود إلى داري
وأذهب إلى غرفة المطالعة ، وقبل دخولها أخلع ملابسى
الخشنة الملوخة بالوحل التي ألبسها في الريف ، وأرتدى
أحسن ثيابى وهكذا بعد أن أكتسى بالكساء اللائق
أدلف إلى جماعة الرجال الذين عاشوا في غابر الزمان ،
وأغتذى بعد ترحيبهم بى من ذلك الغذاء الذى يمدنى
بالقوة ويعيد إلى النشاط والذى أنا مدين له بكىافى ،
وأجترئ على التحدث معهم وأوجه إليهم الأسئلة عن
أسباب ما قاموا به من الأعمال : وهم يترفقون بى
ويتفضلون بالإجابة عما أوجه إليهم من الأسئلة فيزول
عنى الشقاء وأنسى آلامى جميعها وأصير غير خائف من
الفقر أو الموت ، وأنسى فيهم نفسى ، وقد قال دانتي
« المعرفة مكونة مما سمعه الإنسان » ولذلك قد دونت
كل ما أعجبت به في حديثهم ، ومن هذه المذكرات
ألفت كتيباً وهو كتاب « الأمير » درست فيه الموضوع
جميعه بأقصى ما أستطيع من العناية والإتقان .

وهكذا كان يهرب ماكيافلي من عالم الواقع إلى
عالم الفكر والخيال ، وربما لا نستطيع أن نقدر كتابه
التقدير الوافى إذا لم نقدر الحالة النفسية التي كان يعانها
وهو يكتبه ، فقد كتبه وهو يقاسى الفقر والحرمان في
غرفته الصغيرة في سان كاسشيانا سنة ١٥١٣ وقد كان
بمناوبة الوزير المخلص للجمهورية الناجح في عمله المتحمس
للجيش الذى دربه للدفاع عنها ولكنه في ظروفه الراهنة
منفى شريد أطلق سراحه من السجن ولا تزال يداه
منتفخين من أثر التعذيب ، وقد فقد مكانته وعمله
وماله وليس عنده ما يكفى زوجته وأولاده ، وفي
مختلف الحالات التي عرضت له كان تفكيره يتجه

المقدسة لم يجد البابا معه مفراً من الفرار ، ولما بلغت
هذه الأخبار مسامع أهل فلورنسا ثاروا بحكومة أسرة
المديتشى وأعيد النظام الجمهورى وبدأ أن الفرصة قد
لاحت لعودة ماكيافلي إلى سرته في العهد الجمهورى
السابق ، وتحورت المدينة وأخذت تتأهب للدفاع عن
كيانها ، ولم يمتد العمر بماكيافلي للاشتراك في هذا الدفاع
البطل ، وقد تطلع إلى استعادة وظيفته في العهد
الجمهورى الجديد ولكنه كان قد فقد تأثيره وظن أن
تقدمه في السن لا يمكنه من النهوض بأعباء وظيفته
السابقة ولذا لم يذكر اسمه ضمن أسماء الذين رشحوا لها
ولم يعن أحد بشأن الرجل الذى ملأ هذا المركز بجدارة
ممتازة مدة خمسة عشر عاماً ، وكان لاشتراكه في بعض
السفارات أثناء حكم المديتشى أثر في الإعراض عن
اختياره وإهمال شأنه ، ولقد خدم الرجل مدينته
بإخلاص في مختلف العهود التي توالى عليها ونزلت به
الكوارث من جراء إخلاصه لمبادئه الديمقراطية ، ولكن
في العهد الجديد الذى استعادت فيه الديمقراطية مقاليد
الحكم عد أنه قد فقد حقه في الاشتراك في العمل
لموالاة لأسرة المديتشى ، وقد اختير رجل آخر ليملا
الوظيفة التي كانت مطمح بصره ومعقد أمله ، وبذل
جهداً مضيئاً وعاد من رحلة طويلة متعبة ليسمع أن آماله
قد خابت ، وكان في ذلك الضربة القاضية عليه ، وكان
قد شكاً حيناً من الزمن علة داخلية وأصابته نوبة لم يستطع
التغلب عليها ، وعرفت زوجته وأولاده أن ساعته
الأخيرة قد حانت فاستدعوا راهباً ، وقضى نحبه في
اليوم الثانى بعد العشرين من شهر يونيو سنة ١٥٢٧
ودفن في كنيسة الصليب المقدس (سانتا كروتشه) ،
ورأت الأجيال التالية أن تقيم على قبره نصباً يحمل هذه
الكلمات القليلة المعبرة : « لا يبلغ المدح شأؤ ذلك الاسم
» نيقولا ماكيافلي المتوفى سنة ١٥٢٧ « وقد أراحه الموت
من رؤية سقوط المدينة وفقدانها استقلالها ، واشترك
الجيش الذى أوجده ماكيافلي مع أنصار أتباع سافونارولا

دائماً إلى السياسة ونظم الحكم ومن أقواله عن نفسه « لقد تعودت أن أفكر في الحكومة ونظام الدولة ، ولما كنت لا أستطيع الكلام عن صناعة الحرير أو الصوف أو الخسارة أو الربح لذلك قضى الحظ أن أستمع ببحث فن الحكم » وقد رأى بعينه انهيار النظم التي خدم الدولة في ظلها وجعله ذلك يطيل التفكير في طريقة المحافظة على السيادة وكيان الدولة ، وتفسر لنا التجارب المرة التي مر بها ما يتخلل بعض عبارات الكتاب من احتقار للبشر وسوء ظن بالطبيعة الإنسانية ، على أن كتاب الأمير لا يمثل آراء ما كيا في السياسة تمثيلاً كاملاً ، فقد بسط آراءه السياسية بطريقة أكثر اعتدالاً وأتم استيفاء في كتاب « المطارحات » وفي رسائله ، ولكن ربما كان من أسباب اشتها كتاب الأمير أنه كتبه وهو يعاني الأزمات النفسية وقد امتلأت نفسه مرارة وألماً وخابت آماله فجاء خلاصة موجزة شديدة التركيز لتجاربه السياسية وتفكيره العميق في نظم الحكم مما جعل الكتاب مرجعاً للملوك والأمراء والحكام والسياسيين في مختلف الأمم ، وقد أتاح له الفراغ الذي أرغم على قبوله الفرصة المناسبة لتناول المشكلة التي ظالما شغلت باله وهي مشكلة كيف ينشئ أمير جديد دولة جديدة وأول ما يشترط في هذا الأمير القدرة على إيجاد الوحدة بين الولايات المختلفة سواء تمت هذه الوحدة بالعنف والإرغام وإراقة الدماء أو بالمسالمة واللين ، ومتى تمت هذه الوحدة يستطيع الأمير إذا عدل في الحكم وأحسن السياسة أن يمد حدود ملكه ، وكانت صورة شيزاري بورجيا وأعماله تطلعه وهو يكتب كتابه وتوحي إليه ، فقد رأى في شخصيته مثالا للأمير الذي يستطيع أن ينهض بعبء توحيد الولايات الإيطالية وقد كشفت له حياة شيزاري أن السيف أصدق إنشاء في خلق الدول من الكتب ، وأن لا بأس على الأمير في أن يتخذ الرجال آلات لتحقيق أهدافه ثم نبذهم نبذ النواة إذا اقتضت المصلحة الاستغناء عن خدماتهم ، وكان مكيا في قد

انتوى أن يهدي الكتاب إلى جوليانو مديتشي ولكنه تردد في ذلك كثيراً حتى مات جوليانو سنة ١٥١٦ فحول الإهداء إلى لورنزو ، ولا يعلم هل اطلع لورنزو على الكتاب أو قبله أم لا ، وفي هذا الإهداء يقول « إن الذين تعودوا أن يخطبوا ود الأمراء يبتغون في العادة أن يهدوا إليهم أثمن ما يملكون وإنه في دوره يحرص على أن يقدم دليلاً على إخلاصه ، ولما كان أثمن ما يملك هو فهمه لأعمال الرجال العظاء الذي اكتسبه من طول خبرته بالشؤون المعاصرة ومثابرتة في الاطلاع على التاريخ القديم لذلك رأى أن يقدم خلاصته متضمنة في ذلك الكتيب الذي يقدمه ، وإن إقدامه على ذلك الإهداء ليس من قبيل الغرور والادعاء ، فهو إن كان من غمار الشعب وليس في العير ولا في النفير فإن الذي يستطيع تصوير الجبل الشامخ هو الواقف في السهل ، وكذلك المشرف من أعالي الجبل يجيد رؤية السهل ، وكذلك فهم الشعب يقتضي أن يكون الإنسان أميراً وفهم طبيعة الأمراء يستلزم أن يكون الإنسان مواطناً عادياً »

وهذا الكتاب الموجز مكون من ستة وعشرين فصلاً ، وفرط إيجازه جعل ما كيا في لا يلجأ فيه إلى الاستطرادات والتكرار انذى يملأ صفحات كتاب « المطارحات » ، والأمير الذي يصفه لنا ما كيا في كتابه أمير إيطالي في جوهره ولكنه يحمل سمات أمراء عصر الإحياء ، وهو طاغية حاكم بأمره ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك إذا صمم على أن ينجح في تحقيق الوحدة وتسليح بلاده وتحريرها من سلطة الأجنبي ، وإذا نجح في تسليح قومه وطرده الأجنبي فإنه سيشعر بعد ذلك في سن القوانين الصالحة ويعمل على بقاء نظامه وحمايته بأن يكل إلى الشعب الدفاع عنه ، وكانت أسرة المديتشي في وقت تأليف الكتاب قد ازدهرت أحوالها وبلغت قمة الحقد واستفاض ثراؤها وخيل لما كيا في أن الصورة التي رسمها للأمير المنقذ قد تسهوى خيال أحد

حرة ، والأمير إما أن يضمها إلى أملاكه بقوة سلاح
الغير وإما بقوة سلاحه وبالحظ أو بالشجاعة .

ويشير في الفصل الثاني إلى أنه سيقصر الكلام على
الإمارات لأنه أطال الكلام على الجمهوريات في مكان
آخر ، وهو يقصد بذلك أنه استوفى الكلام عن
الجمهوريات في كتاب « المطارحات » وفي الإمارات
الحديثة العهد يوجد الأمير دولة جديدة ، أو يجدد
امتلاك الدولة ، والإمارات التي يوجد فيها الأمير دولة
جديدة هي الموضوع الرئيسي في الكتاب لأن الصعوبات
التي يواجهها الأمير في إنشاء الدولة الجديدة أكثر من
الصعوبات التي يواجهها في الإمارات الموروثة ، ولذلك
تستلزم الإمارات الحديثة معرفة أوسع وقدرة أعظم على
الحكم الصالح والإدارة الحسنة ، والإمارات التي بناها
الأمير بالغزو يضر غزوها بمصلحة الكثيرين والذين
يستفيدون من الغزو ينتظرون أن تمكنهم من فوائد
أكثر من الفوائد التي ظفروا بها .

وحينما تكون المقاطعة التي ضمت تشبه المقاطعات
التي ضمت إليها تكون الصعوبات المعترضة أقل ويكفي
في التغلب عليها الاحتفاظ بالعادات القديمة ويسفك دم
الأمير السابق ، ولكن حينما يكون كل شيء في الولايات
الجديدة مختلفاً تكثر العقبات والمشكلات وفي هذه
الحالة من اللازم للأمير أن يذهب إلى الولايات الجديدة
ويقوم بها وبهذا يستطيع أن يوطد مكانته ويستديم سلطته
وهذا هو ما فعله الأتراك حينما ضموا إلى أملاكهم بلاد
اليونان ، ووجود الأمير في تلك الولايات الجديدة يمكنه
من أن يعالج المشكلات عند بدء ظهورها وقبل أن
يستفحل خطرها ، وفضلاً عن ذلك فإن وجوده يحول
بين رجاله وبين استغلال الولايات الجديدة وانتهابها ،
ويرضى ذلك جمهرة الشعب لأنه يستطيع أن يتقدم إليه
مباشرة بالشكوى من أي لون من ألوان الظلم يلحقه ،
وهذا يجعل أفراد الشعب يحبونه إذا كانوا يريدون الخير
والسلامة ، ويرهبونه إذا كانوا نزاعين إلى الشر

أفراد هذه الأسرة النابهة فيعمل على الاقتداء به وترسم
خطواته ، ومما يؤيد ذلك قوله « أود لو أن أسرة
المدينتشي استعملتني ولو لدرجة الأحجار لأتني إذا لم
أستطع أن أكسبهم في صفى فسيكون ذلك من قصورى
وعجزى لا من الحظ » والوظيفة التي كان يتطلع إليها
كان يريدتها لتحقيق أفكاره ، وأكثر الأمثلة التي
ذكرها في الكتاب كانت مستمدة من الحوادث التي
عاصرها مثل أخبار فرديناند الكاثوليكي ولويس الثاني
عشر وفرانثيسكو سفورزا وشيزارى بورجيا ، على أنه
كان من الحين إلى الحين يشير إلى حوادث وشخصيات
مستمدة من اطلاعه على التاريخ القديم ، وهو في العادة
يقدم لها بشيء من الاعتذار مثل قوله « إنى لا أريد أن
أخرج من حدود الأمثلة من إيطاليا والتاريخ الحديث
ولكنى لا أستطيع أن أمسك عن ذكر هيرون صاحب
سرقوسة » وهو ينتقل من فصل إلى فصل بمنطق متماسك
وتعبير دقيق يمتاز بالوضوح وجمال العرض حتى يكاد
الكتاب أن يكون طرفة فنية وأثراً أدبياً بليغ العبارة
شائفاً جذاباً .

وهو يستهل الفصل الأول بقوله (١) « كل الدول
والأملاك التي عاش الناس تحت سلطتها في الماضي
وفي العصر الحاضر كانت إما جمهوريات وإما إمارات
والإمارات وراثية وأسرة الأمير قد استقرت طويلاً
في الحكم أو أنها إمارات حديثة العهد ، والإمارات
الحديثة العهد إما أنها جديدة كل الجدة مثل إمارة أسرة
فرانثيسكو سفورزا في ميلان وإما أنها قد أضيفت إلى
الدولة التي ورثها الأمير مثل مملكة نابولي في علاقتها بملك
إسبانيا ، وأمثال هذه الأملاك المضافة إما أنها كانت قبل
ذلك قد ألقت أن يحكمها أمير آخر أو أنها كانت ولاية

(١) اطاعت على ترجيات مختلفة لكتاب الأمير إلى اللغة
الإنجليزية والفرنسية وقد أثرت أن اعول هنا على ترجمة جورج بول
باعتبارها أحدث ترجمة للكتاب وهي في طبعة بينجوين .

والعدوان ، وهناك طريقة أخرى خير من هذه الإقامة في الولايات الجديدة وهي إيجاد مستعمرات بها في مكان أو مكانين ، وهذه المستعمرات تكفل ارتباطها بك ، وإذا لم تنشئ هذه المستعمرات فإن الأمر يقتضى وجود عدد كبير من الجنود الفرسان والمشاة ، وإيجاد المستعمرات لا يكلف نفقات كثيرة مثل الجيوش ، ويستطرد ماكيافلى ليقول إن الناس إما أن تملقهم ونسترضيهم أو نستذلهم ونغلبهم على أمرهم ، وذلك لأنهم يستطيعون أن ينتقموا للأضرار التافهة التي تصيبهم ولكنهم يعجزون عن الانتقام لأنفسهم ممن ينزل بهم الأضرار الجسيمة ، ولذلك على الأمير أن يكون ما ينال الناس من أضراره من هذا النوع الذي لا يخشى معه الانتقام ، ومن ثم يحسن محاولة استمالة الجيران الضعفاء لأن هؤلاء سرعان ما يخضعون للدولة الجديدة إذا كانت قوية ، وفي الوقت نفسه من الضروري إخضاع الجيران الأقوياء وألا تساعد الأجانب الأقوياء أو تسمح لهم بدخول دارك .

ويشير ماكيافلى في الفصل الثالث إلى حكمة الرومان في الحكم ، وأنهم كانوا لا يكتفون بمعالجة المشكلات الراهنة بل كانوا يستبقون الحوادث ويتناولون المشكلات المتوقعة ، ويذكر بهذه المناسبة أن المشكلات مثل الأمراض يسهل علاجها في بادئ أمرها ولكن يصعب تشخيصها ، فإذا اشتدت أصبح من الصعب علاجها ومن السهل تشخيصها ، والاضطرابات السياسية يمكن إخمادها سريعاً إذا توقع اقتراب حدوثها ، والحاكم البعيد النظر هو الذي يدرك ذلك ، ويضرب ماكيافلى الملك لويس الثاني عشر مثلاً لقصر النظر وسوء التدبير حينما جاء إلى إيطاليا محصياً أخطائه السياسية ، فقد خالف القواعد التي قررها ماكيافلى ففضى على الأمراء الضعفاء وزاد الأمراء الأقوياء قوة ، ويمكن منافساً قوياً وهو إسبانيا من الدخول إلى إيطاليا ، ولم يتخذ إيطاليا موقفاً له ، وأخفق في إيجاد مستعمرات بها ويقول ماكيافلى

في هذه المناسبة « حينما قال لي الكاردينال دى روهان إن الإيطاليين لا يفهمون فن الحرب أجبته قائلاً إن الفرنسيين لا يفهمون صناعة الحكم ، وإلا لما سمحوا للكنيسة أن تبلغ ما بلغته من القوة » .

ويستطرد ماكيافلى قائلاً « وقد أظهر سير الحوادث في إيطاليا أن فرنسا هي التي عملت على تقوية مكانة البابوية في إيطاليا ووطدت أقدام الإسبانيين بها ، وكان ذلك سبباً لتدمير جيشها وهزيمتها ، ويمكن أن نستخلص من ذلك قاعدة عامة لا تخطئ إلا نادراً ، وهي أن الذي تقع عليه تبعة تقوية الغير إنما يسعى إلى حتفه بظلفه ، وذلك لأن هذه القوة إما أن تكون مستمدة من الدهاء والحيلة أو آتية من الشدة والعنف ، والمكر والعنف كلاهما يثير اشتباه الذي أصبح قوياً »

وفي الفصل الرابع من الكتاب يدير الحديث حول مملكة دارا وخضوعها للإسكندر المقدوني ولماذا لم تثر بخلفاء الإسكندر بعد موته ، ويعلل ماكيافلى ذلك بأن دارا كان الحاكم المطلق السلطة في أرجاء بلاده ، ولم يكن هناك طبقة من الأشراف الإقطاعيين تقاسمه السيطرة وتشاركه في النفوذ ، فلما هزم الإسكندر جيشه خضعت له البلاد خضوعاً تاماً ، ولم يزعج خلفاء الإسكندر سوى الخلافات التي قامت بينهم لمحاولة كل منهم الاستئثار بالحكم ، ويقول ماكيافلى إن الإمبراطورية العثمانية التي كانت معاصرة له تشبه دولة دارا في خضوعها لحاكم فرد مطلق السيادة ، وإن مثل هذه الإمبراطورية قد يلقي المغير عليها الشدائد ، ولكنها إذا غلبت وتم غزوها هان على الفاتح حكمها ، وعلى خلاف ذلك الدول التي يوجد فيها إلى جانب الملك طبقة من الأشراف الإقطاعيين فإن مثل هذه الدولة قد لا يجد الذي يحاول التغلب عليها مقاومة شديدة ولكن حكمها بعد الفتح من أشق الأمور لأن حاكمها يمكن أن يترضى الأشراف الإقطاعيين الذين لا تؤمن نزواتهم ولا يمكن الاطمئنان إليهم .

وعقد الفصل الخامس للكلام عن حكم الولايات التي كانت مستقلة قبل الفتح وكيف تحكم بعد الفتح ، ورأيه أن هناك ثلاثة طرق لحكم أمثال هذه الولايات أو المدن ، الأولى هي تخريبها وإزالة معالمها ، والطريقة الثانية أن يذهب الأمير وقيم بها ، والطريقة الثالثة أن يبقى لها قوانينها ويكتفى بتحصيل الجزية المضروبة عليها ويؤيد طائفة من الأشراف تدين له بالولاء ، ويؤيد ما كيا في وجهة نظره بأمثلة من التاريخ القديم فالإسبارطيون حكموا أثينا وطيبة بطريق طبقة الأشراف التي أنشئوها بها ، أما الرومان فلكى يوطدوا سلطتهم في كابوا وقرطاجنة ونومانتيا لم يحجموا عن تدميرها ، وأرادوا أن يحكموا بلاد اليونان بالطريقة التي حكمها بها الإسبارطيون تاركين لها قوانينها الخاصة بها ولكنهم لم ينجحوا في ذلك ولذلك اضطروا إلى تخريب كثير من مدن اليونان لاستبقاء سلطتهم ، ويقول لنا ما كيا في في صراحة وحشية « الذي يصبح سيداً لمدينة قد تعودت الحرية ولا يدمرها عليه أن ينتظر تدميرها له » .

وفي الفصل السادس ينتقل بنا ما كيا في إلى صميم موضوع كتابه ، وهو كيف يحكم الأمير الجديد الدولة الجديدة ، وحكم مثل هذه الدول في رأيه متوقف على مزايا الأمير ومواهبه قبل كل شيء ، والأمير الذي يعتمد على براعته وقدرته يستطيع أن يكون أكثر اطمئناناً إلى مكانته من الأمير الذي يعتمد على الحظ الحسن وإن كانت موأاة الحظ لازمة له لزوم المواهب والمزايا ولكن كلما كان اعتماده على قدرته وكفايته أكثر من اعتماده على إسعاف الحظ كان مركزه أثبت ، ويقول ما كيا في « وإذا تحدثنا عن الأمراء الذين وصلوا إلى الإمارة بقدرتهم وكفايتهم لا بالحظ الحسن فإن أشهرهم موسى وقورش ورومالاس وتيزيس وأمثالهم ، ومع أنه من غير المناسب ذكر موسى في هذا الصدد لأنه لم يكن سوى رسول ينفذ ما أمره به الله ولكنه مع ذلك جدير بالمدح للطف الإلهي الذي جعله جديراً بأن

يحدث الله ، ولننظر إلى قورش وأمثاله الذين أوجدوا ولايات وضموا إليهم ولايات وجميعهم جديرون بالثناء عليهم وأعمالهم وقوانينهم حيناً تختبر لا يبدو أنها تقل عن أعمال موسى وقوانينه وإن كان أستاذه العلي القدير ، وحيناً ندرس حياتهم وأعمالهم يبدو لنا أنهم لم يظفروا من الحظ بسوى إتاحة الفرصة لهم ، أى أن الحظ زودهم بالمادة وهم الذين أفرغوها في القالب ، وبدون الفرصة المتاحة كانت شجاعتهم تنطفئ وقدرتها وبدون الشجاعة كذلك كانت الفرصة التي أتاحت لهم تذهب عبثاً » .

ويستطرد ما كيا في قائلاً « والرجال الذين أصبحوا أمراء بإقدامهم وشجاعتهم يحصلون على الولايات التي يحكمونها بصعوبة ، ولكنهم يجدون سهولة في الاحتفاظ بها ، وذلك لأن الصعوبات التي تواجههم في الحصول على الإمارات ينشأ جانب منها من جراء النظم الجديدة والقوانين التي يضطرون إلى إدخالها والأخذ بها في إنشاء الدولة وتوطيد مكائهم » والنظم الجديدة تثير العداء من جانب الذين كانوا يعيشون في ظل النظم القديمة ، والذين تتحسن أحوالهم في ظل النظم الجديدة يتلقونها أول الأمر في شيء من التردد والتهاون ، وذلك لأنهم من ناحية يخشون أنصار النظام القديم ومن ناحية أخرى لأن البشر بطبيعتهم ضعاف الإيمان ولا يسرعون إلى تصديق الأشياء الجديدة إلا بعد أن يختبروها ونتيجة لذلك نرى أن الذين يقاومون التغيير يهاجمونه في عنف في حين أن المدافعين عن النظم الجديدة ينقص دفاعهم في العادة التحمس والإيمان ، وهذا يجعل موقف المجدد وأنصاره مستهدفاً للخطر ، ويفرق ما كيا في بين المصلح المجدد الذي يقف مفرداً والمصلح المجدد الذي يستند إلى قوة تحميه أى بين هؤلاء الذين يحاولون أن يحملوا الناس على الأخذ بأرائهم عن طريق الإقناع والذين يحملون حملاً على اعتناق آرائهم بطريق الإرغام والعنف ، وعنده أن الأولين يخفون وتنهى حياتهم بمأساة في حين

أن الآخرين ينتصرون ، وجمهرة الشعب بطبيعتها متقلبة الأهواء ومن السهل إقناعها ولكن من الصعب استمساك الناس بالاعتناع ، ولذلك على المصلح أن يحسب حساب ذلك التقلب ، وأن يكون له من القوة ما يرغمهم به على ما سبق أن اقتنعوا به إذا انخرقوا عن ذلك الاعتناع ، وموسى وقورش وتيزيس وروملاس ما كانوا يستطيعون أن يحملوا الناس على قبول شرائعهم لو كانوا غير مسلحين ، وقد أخفق سافونارولا حينما فقد الشعب إيمانه به لأنه لم يكن له من القوة ما يرغم به الشعب على معاودة هذا الإيمان ، وأمثاله من الرجال يجدون صعوبات جمة في تحقيق أهدافهم وأشد الأوقات التي تمر بهم خطراً هي فترة جهادهم لإقناع الناس بآرائهم ، ولكن إذا نجحوا في اجتياز هذه المرحلة وبدأ الناس يحترمونهم بعد تغلبهم على حسادهم ومنافسيهم فإنهم يستطيعون بعد ذلك الاحتفاظ بمكانتهم .

وفي الفصل السابع يتحدث ماكيافلي عن الولايات التي تكتسب عن طريق الخطأ أو بمساعدة جيوش أجنبية ، وهو يرى أن الذين يصبحون أمراء من عامة الشعب عن طريق الحظ لا يبذلون من جانبهم سوى القليل من الجهد ولكنهم لا يستطيعون المحافظة على مكانتهم إلا ببذل مجهود ضخم ، وإذا لم يكونوا على جانب كبير من الشجاعة وسداد الرأي فإنهم سرعان ما يفقدون ما جاد به عليهم الحظ الحسن ، ويضرب ماكيافلي مثلين لمن يصبح أميراً عن طريق الشجاعة أو طريق الحظ ، وهما فرانثيسكو سفورزا وشيزاري بورجيا وكانا معاصرين له ، وقد اعتمد الأول على شجاعته واستطاع أن يرتفع من مستوى المواطن العادي إلى مرتبة دوقية ميلان وقد بذل في الحصول عليها جهداً عظيماً ولم يجد بعد ذلك صعوبة في الاحتفاظ بها ، أما شيزاري بورجيا دوق فالنتينوا فقد ظفر بالإمارة بمعاونة أبيه البابا إسكندر ، وفقد الولاية التي أمر

عليها بعد وفاة أبيه وذلك برغم ما بذل من جهد في سبيل تثبيت قواعد دولته .

ويصف لنا طريقة شيزاري في حكم إمارة رومانا التي كان أميراً لها فيقول إنها كانت مضطربة الأحوال فصمم شيزاري على أن يقيم بها حكومة صالحة وأن ينشر السلام في ربوعها بجعلها خاضعة لسلطة الدولة ، ولذلك اختار لها المدعو ريميرو دوركو وهو رجل كفء وقاس ، ومنحه سلطة مطلقة ، واستطاع ريميرو أن يوحد رومانا وينشر السلام في ربوعها ، وبعد ذلك رأى شيزاري أنه لا حاجة به إلى منحه السلطة المطلقة ، وعمل على إيجاد محكمة مدنية داخل المقاطعة تحت رئاسة كبير من رجال القضاء العاديين وجعل لكل مدينة من مدن المقاطعة نائباً في هذه المحكمة ، ولما كان يعلم أن سياسة الشدة التي سار عليها ريميرو قد جعلته مكروهاً إلى حد ما لذلك أراد أن يستصفي قلوب الناس ويكسب ودهم كسباً تاماً وذلك بأن يريهم أن الشدة التي عوملوا بها لم تكن من إملاء إرادته وإنما كان سببها طبيعة وزيره الخشن اللفظ ، وترقب الفرص وفي ذات صباح وجدت جثة ريميرو ملقاة في ميدان شيسنا وقد شطرت شطرين وإلى جانبها سكين مخضبة بالدماء وقطعة من الخشب ، وهذأت فظاعة المنظر نفوس أهل رومانا حيناً من الزمن وأذهلتهم ، ويقول ماكيافلي إن شيزاري كان قد احتاط لجميع المفاجآت المتوقعة إذا مات أبوه البابا إسكندر وإنه كان يعرف أن الناس إما أن يكتسبهم الإنسان إلى صفه وإما أن يدمرهم تدميراً وأقام إمارته على أساس متين ، ولكن حدث ما لم يكن في حسبانته ، ففي وقت وفاة أبيه مرض مرضاً شديداً عاقه عن تناول الموقف بما هو معهود فيه من الجرأة وسرعة البت وسعة الحيلة وإتقان التدبير ، ولما أبل من مرضه كانت الفرصة قد أفلتت والأحوال قد تأزمت وتكاثرت عليه الأعداء والمشكلات ، فهوى نجمه وطويت صفحة مجده ، ويقول المؤرخ فيلاري

تأييداً لرأى ماكيافلى فى إشادته بحكم شيزارى لإمارة روماناً^(١) «عندنا الآن براهين لا يتطرق إليها الشك على أن طريقة الدوق (شيزارى) فى حكم روماناً كانت فى الواقع أكثر حكمة واستنارة مما كان يظن قبل ذلك» .

ويشير فيلارى إلى قتل ريمىرو بقوله إن شيزارى حذر كثيراً من الإمعان فى الشدة ونهاه عن سوء معاملته للطبقات الفقيرة ، ولكنه لم ينته عن غيه مما اضطر الدوق إلى التخلص منه حتى يكفأ أذاه ويستميل الناس إلى سياسته وقد زف إلى الشعب بشرى مصرعه باعتبارها علاجاً للعذالة .

ويمضى ماكيافلى فى الحديث بعد ذلك عن الأمراء الذين وصلوا إلى الإمارة لا عن طريق الحظ الحسن وإنما بارتكاب الجرائم وكأن شيزارى بورجيا لم يكن كافياً ! ويقدم لذلك مثلين ليحتديهما من يجد نفسه فى ظروف تقتضى اتخاذ هذه الوسائل المستنكرة ، الأول أجاوكل الصقلى الذى أصبح بمهارته الحربية سيد سرقوسة رغم ضعة أصله ، فقد سعى فى أول أمره إلى مصادقة القرطاجيين ثم جمع بعد ذلك الشعب وأعضاء مجلس الشيوخ وأمر عساكره بقتل أعضاء مجلس الشيوخ وزعماء الشعب ، ونجح بعد ذلك فى الاستيلاء على الحكم دون أن يلقى معارضة ، واستطاع بعد ذلك مهاجمة قرطاجنة وإحراجها حتى اضطر القرطاجيون إلى الانسحاب من صقلية ، ويشعر ماكيافلى بأن ذكر هذا المثل قد يبعث القارئ على أن يظن أنه يجب هذا الغدر تحييداً تاماً فيستدرك قائلاً «لا يمكن أن نعد من الشجاعة أن يقتل الإنسان المواطنين زملاءه ويخون أصدقاءه وأن يكون غادراً مجرداً من الرحمة خارجاً على الدين ، فإن هذا قد يكسب الأمر قوة ولكنه لا يصفى عليه المحد ، ويستطيع الإنسان أن

(١) صفحة ١٦٧ من الجزء الثانى من الترجمة الإنجليزية لكتاب فيلارى عن ماكيافلى .

يلفت النظر إلى شجاعة أجاوكل فى مواجهة الأخطار والتغلب عليها ويبدو أنه لا يقل منزلة عن كبار القادة المتفوقين ولكن برغم ذلك فإن قسوته الوحشية وتجرده من الإنسانية وجرائمه التى لا تعد تمنع من إلحاقه بركب الرجال العظماء الأعلياء» .

والمثل الثانى الذى يقدمه ماكيافلى هو أوليفرتو الفيروماوى فقد نشأ يتيماً وكفله خاله جيوفانى فوليانى ، وأرسله ليعمل جندياً تحت إشراف باولوفيتلى ليتدرب على القيادة ، ولما كان ذكياً جرى الجنان فقد صار قائداً بارعاً ، ولكنه وجد أنه مما يزرى به أن يتلقى الأوامر من غيره من الناس ، ولذلك صمم على الاستيلاء على فيرمو وكتب رسالة إلى خاله يخبره فيها أنه يريد أن يدخل المدينة فى موكب حافل تحف به الفرسان ليرى الشعب فخامة أمره وقوة جيشه ، وتلقاه خاله بالترحيب والإكبار وأنزله فى قصره ، وأعد أوليفرتو عدته ونظم مؤامراته ، ودعا خاله وأعيان فيرمو إلى وليمة حافلة ، وأمر بقتلهم جميعاً ، وركب فى أعقاب ذلك جواده ليمر فى أنحاء المدينة التى أصبحت خاضعة له ، ولولا أن الدوق فالتنوا قتله بعد ذلك لكان من الصعب زحزحته عن مكانته .

ويتساءل ماكيافلى بعد ذلك كيف ظل أجاوكل فى أمن وسلام بعد ارتكاب هذه الجرائم وإقتراف هذه الآثام ؟ وذلك فى حين أن الكثيرين من الطغاة الأشرار كانت نهايتهم سيئة ، ويجاوب على هذا التساؤل بأن الأمر يتوقف على الطريقة التى ارتكبت بها الفظائع وهل تمت بطريقة بارعة أو بطريقة معيبة ؟ ويمكن أن يقال إن الجرائم التى اقترفت بطريقة بارعة هى التى كان سببها الرغبة فى توطيد المكانة ودفع الأذى التى يتوقف عليها نجاة الإنسان ، والقسوة التى يساء استعمالها هى التى يندر استعمالها فى بادئ الأمر ، ولكن بمرور الزمن تصبح بدلاً من أن تختفى أكثر ظهوراً ، ولذلك على الأمير الذى يستولى على دولة أن يقرر

الأضرار التي سيوقعها بها ، ويصبها عليها مرة واحدة ، ولا يجدد إلحاق الأضرار بها كل يوم ، وبهذه الطريقة يستطيع أن يبعث الطمأنينة في نفوس الناس ويجتذبهم إلى صفه حينما يجود عليهم بما ينفعهم ، والذي يخالف ذلك يباعث الخوف أو النصيحة السيئة سيضطر إلى أن يحمل السلاح دائماً ، ولا يستطيع أن يعتمد على رعيته ، لأن الأذى الذي لا ينقطع عنهم يجعلهم لا يأمنون جانبه ، والأذى الذي يحيق بهم مرة واحدة سرعان ما ينسى طعمه ، والنعم المغدقة تحسن أن تمنح بالتدريج ، ومن ثم تكون ألد طعماً وأجمل وقعاً .

وينتقل بعد ذلك ما كيا في إلى الحديث عن الإمارة الدستورية ، ويقول إنها يجب أن تقوم على مساندة الشعب الذي بدونها لا يمكن أن تكون الحكومة ثابتة اقواعد ، ومن أشد الأمور خطراً ترك حكومة الدولة الأعيان ، وهم إذ عجزوا عن مقاومة الشعب عملوا على تقوية مكانة واحد منهم ونصبوه أميراً لكي يحققوا أهدافهم عن طريقه ، والأمير الذي يصل إلى الإمارة عن طريق الأعيان يجد صعوبة في المحافظة على مكانته أكثر من الأمير الذي يصل إلى الإمارة مؤيداً من الشعب ، وإرضاء الأعيان وإشباع رغباتهم يضران بمصلحة الشعب ، والأعيان يريدون أن يقهروا الشعب أما الشعب فإنه لا يريد سوى رفع الظلم عن كاهله ، والأمير لا يستطيع إغضاب عامة الشعب لكثرة عدده ، أما الأعيان فأمرهم هين لأن عددهم قليل ، والأمير الذي وصل إلى الإمارة عن طريق الشعب لا يجد صعوبة في استدامة رضائه لأن الشعب لا يريد سوى العدالة ، أما الأمير الذي يصل إلى الإمارة بمعاونة الأعيان فعليه أن يعمل على اكتساب ثقة الشعب وهو أمر ميسور سهل إذا بسط على الشعب حمايته ، ويذكر ما كيا في مثلاً لذلك نابيس أمير إسبارطة ، فقد تحدى بلاد اليونان جميعها وجيشاً رومانيا منتصراً ودافع عن بلاده وعن سلطته ، ولو أنه كان مكروهاً من شعبه لما استطاع أن

يقف هذا الموقف ، وتتجلى ديمقراطية ما كيا في قوله « لا يعارض أحد رأيي هذا بهذا القول المتبدل وهو أن الذي يعتمد على الشعب يبنى على الرمل » . وفي الفصل العاشر يتحدث ما كيا في عن كيفية قياس قوة الإمارات ، وعنده أن قوة الدولة متوقفة على قوة جيوشها ، فالدولة قبل كل شيء يجب أن تملك وسائل الدفاع عن كيانها ورد هجمات أعدائها وإخضاع المتمردين عليها من الرعية .

وهذا هو مدى تصور ما كيا في للدولة والأسس التي تقوم عليها ، ومن الملحوظ أنه ينسى أو يغفل أن يدخل في حسابه عناصر أخرى تبرز بكيان الدولة والمجتمع مثل الدين والثقافة والتجارة والصناعة ، ويبدو في اتجاهات ما كيا في أنه في تركيز اهتمامه على الدولة وقوتها يحاول أن يفصلها عن المجتمع وعن الفرد ، وأنه مستعد للتضحية بهما من أجل توطيد الدولة غير عالم أنه بهذه الطريقة يهدم بناء الدولة نفسه ، ومهما يكن من الأمر فإن مجال عناية ما كيا في هو الجيش والسياسة ، فبدون الجيش وبدون السياسة الحكيمة لا يمكن المحافظة على كيان الدولة .

وفي الفصل الخاص بالإمارات الدينية يقول ما كيا في إن أمثال هذه الإمارات تنال بالشجاعة أو بالخط ولكن يمكن المحافظة عليها بغير الخط وبغير الشجاعة لأنها في كفالة النظم الدينية ، وهذه النظم الدينية من القوة والثبات بحيث تحمي الحكومة سواء أساء الأمير الحكم أو أحسن ، والأمراء الدينيون وحدهم هم الذين يملكون إمارات ولا يحمونها ، ولهم رعايا ولكنهم لا يحكمون هؤلاء الرعايا ، ولما كانت إماراتهم غير محمية فإنها لا تؤخذ منهم وما دامت رعاياهم بدون حكومة فهم لا يفكرون في إحداث انقلاب ولذلك فإن هذه الإمارات وحدها هي السعيدة الآمنة ، ولما كان الله هو حامى هذه الإمارات فمن الحماقة والادعاء الإفاضة في الحديث عنها .

موال له ، وهذه الطريقة أمن الغدر والتقلب وأصبحت مكانته قوية مرهوبة .

ولكن كيف ينظم الأمير جيشه ؟ عند ما كيا فى أن ألزم ما يلزم الأمير هو البراعة الحرية والقدرة على التنظيم ، والأمراء الذين عنوا بلذاتهم أكثر من عنايتهم بجيوشهم ساء مصيرهم وخسروا عروشهم ، وعلى الأمير أن يعود جسمه على احتمال الشدائد ، وأن يعرف الجغرافيا ومواقع الجبال والسهول والهضاب المستوية والأودية ويدرس الأنهار والمستنقعات ، ويستطيع بذلك أن يجيد معرفة طرق الدفاع عن بلاده وقيادة جيشه ، ويجرى ما كيا فى هنا على عادته فى ذكر الأمثلة المستمدة من التاريخ القديم والتاريخ المعاصر له ، ويرى ما كيا فى أن على الأمير أن يدرس التاريخ ويلم بأعمال عظماء الرجال ليرى كيف كان موقفهم فى الحروب التى خاضوا غمارها ويعرف أسباب انتصاراتهم أو هزائمهم ، وإطلاع الأمير على سير عظماء القواد لازم ليتخذ منهم قدوة ويروى ما كيا فى أنه كان يقال إن الإسكندر كان يتشبه بأشيل وإن قيصر كان يحذو حذو الإسكندر وإن سيبو كان قد اتخذ قورش مثالا له ، وإن كل من يقرأ حياة قورش التى كتبها زينوفون سبرى أن المجد الذى ناله سيبو يمكن أن يعزى إلى اقتدائه بقورش ، وعلى الأمير أن يجد ويجهد فى أوقات السلم والصفاء ليستطيع أن يجنى ثمرات اجتهاده وجهده فى أوقات المحنة .

ولكن ما هى الصفات التى يحسن أن يتحلى بها الأمير والصفات التى تعاب عليه ؟ وهذا الموضوع من الموضوعات الخطيرة التى تناولها ما كيا فى فى الفصل الخامس عشر من كتابه ، وكثير من كتاب القرن السادس عشر كانوا يرون أن الأمير يجب أن تتوفر فيه الفضائل جميعها وأن يكون مثلاً أعلى فى التدين والتواضع والكرم والعدالة ، ولكن ما كيا فى ينظر إلى المسألة من زاوية أخرى ، وهو يقول « هناك فرق بين كبير بين

ويقف ما كيا فى ثلاثة فصول من كتابه على الحديث عن مسألة تكوين الجيش اللازم للأمير ، وهذه المسألة أهمية كبيرة عند ما كيا فى ، لأنه كان لا يفتأ يردد أن الجيوش القوية تدل على وجود القوانين الصالحة ، وحيث لا توجد الجيوش لا يكون هناك قوانين ، والجيوش إما أن تكون مكونة من جنود مرتزقة أو جنود مساعدة أو جنود مختلطة ، والجنود المرتزقة والجنود المساعدة لا فائدة منها وهى مصدر خطر ، والأمير الذى يعتمد على الجنود المرتزقة فى الدفاع عن إمارته لا تحظى إمارته بالاستقرار ولا بالأمن لأن الجنود المرتزقة غير متحدة ولا منظمة ولهم مطامع ولا يؤمن جانبهم وهم شجعان أمام الأصدقاء وجبناء أمام الأعداء ، ويطلق ما كيا فى فى وصفه تعديد صفاتهم وتشريح عيوبهم إطالة العارف بأحوالهم ، ويدلل على صحة رأيه بأمثلة كثيرة مستمدة من التاريخ القديم والتاريخ الحديث الذى عاصره .

والجيش المساعد هو الجيش الذى يستدعيه الأمير من دولة قوية لحمايته ، وفى استدعائه هذه الجيوش خطر شديد على الأمير لأن جنودها إذا هزموا خسروا الأمير كل شئ ، وإذا انتصروا أصبح الأمير فى قبضتهم ، ويضرب لذلك مثل البابا يوايوس الثانى حين استعان بالأجانب ليستولى على فرارا ، وعند ما كيا فى أن الاستعانة بالجنود المساعدة أشد خطراً على الأمير من الاستعانة بالجنود المرتزقة ويوجز رأيه فى قوله إن خطر الاعتماد على الجنود المرتزقة يأتى من جنبها فى حين أن خطر الاعتماد على الجنود المساعدة يأتى — على نقيض ذلك — من جرأتها ، ولذلك كان الأمراء العقلاء يتجنبون الاستعانة بالجنود المساعدة ، ويعود هنا ما كيا فى إلى الإشادة ببطله شيزارى ، وكيف أدرك خطر الاستعانة بالجنود المساعدة ، وبعد أن جرب الجنود المرتزقة وجد أنه لا مندوحة له عن إنشاء جيش

والطمأنينة ، ومن الخير أن يحب الإنسان ويخشى بأسه في الوقت نفسه ، ولكن لما كان هذا من المستحيل فالأفضل أن تكون مرهوب الجانب ، وقد نخشى بأس الأمير دون أن يكون مكروهاً ويرى ماكيافلي أن الخوف من الأمير لا يسئلزم كراهيته ، على أن ماكيافلي يرى أن الأخلاق بالأمير أن يكون مخشى السطوة لا محبوباً ولكن لم هذا ؟ إن ماكيافلي يرد علينا قائلاً « تستطيع أن تزعم بوجه عام عن البشر أنهم ناكرون للجميل وأنهم متقلبون وكذابون وغاشون وأنهم يتحاشون ركوب الأخطار ويطمعون في الكسب ، وما دمت تحسن معاملتهم فإنهم في صفك ومن شيعتك ويسفكون دماءهم من أجلك ويعرضون أملاكهم وحياتهم وأولادهم للخطر ما دام الخطر بعيداً ولكن حيناً يحدق بك الخطر يقبلون لك ظهر الحن ويتنكرون لك ، والأمير الذي يكتفى بالاعتماد على الوعود ولا يصطنع الحيلة ييؤ بالخيبة ، والناس لا تبالي بالإساءة إلى الأمير الذي يجعل نفسه محبوباً ولكنهم يحذرون أن يمسوا بسوء الأمير الذي يخشون بأسه » ، ولا ينسى ماكيافلي أن ينصح للأمير بعدم التعرض لنساء رعيته وما يملكون ، وحيناً يقود الأمير جيشه فعليه ألا يعبأ بالاشتهار بالقسوة لأنه بدون هذه الشهرة لا يستطيع المحافظة على النظام في جيشه ويشيد ماكيافلي بقسوة هانيبال في هذا الصدد كما يأخذ على القائد الروماني سيبيو الإفريقي ضعفه في هذه الناحية .

والفصل الثامن عشر من كتاب الأمير أحد فصوله البالغة الأهمية وهو الفصل الخاص بكيفية محافظة الأمير على وعده أو نكث عهده ، وطالما كان هذا الفصل دريعة للهجوم على ماكيافلي ونقد مذهبه ، ويقول ماكيافلي « يعرف جميع الناس أن المحافظة على العهد من الأمور الجديرة بالثناء ولكن مع ذلك فإن التجربة أثبتت في عصرنا أن الأمراء الذين قاموا بأعمال عظيمة لم يعبثوا قتيلاً بالمحافظة على وعودهم وعرفوا كيف

كيفية معيشتنا وبين كيف كان يجب أن نعيش ، وإن الذي يترك ما هو واقع فعلاً من أجل ما كان يجب أن يقع سيجلب لنفسه الخراب ، والواقع أن الذي يريد أن يتبع الفضيلة في كل سبيل سيجر على نفسه الكوارث إذا كان بين الكثيرين من المحردين من الفضيلة ، ولذلك إذا أراد الأمير أن يحافظ على مكانته فإن عليه أن يتعلم كيف يعرض عن الفضيلة وكيف يكون خيراً حسب الحاجة » ويستطرد ماكيافلي قائلاً « إنني أعلم أن كل إنسان يوافق على أن من أجدر المسائل بالمدح أن تجتمع الصفات الطيبة جميعها في الأمير ، ولكن ما دامت الطبيعة الإنسانية على ما هي عليه فإنه لا يمكن أن تتوفر هذه الصفات في الأمير أو بالأحرى لا يستطيع الأمير أن يظهرها جميعها . . وعلى الأمير ألا يخشى اللوم على الرذائل اللازمة للمحافظة على الدولة ، وذلك لأنه إذا راعى جميع الاعتبارات سيجد أن بعض الأشياء التي تبدو فضائل ستكون قاضية عليه إذا مارسها وبعض الأشياء التي تبدو شريرة ستجلب له الأمن والرخاء » .

ويحسن أن نلاحظ هنا أن ماكيافلي لا يشغل باله في كتابه بأخلاق الأمير الخاصة وسيرته الشخصية ، وإنما يتناول أخلاق الأمير باعتباره ممثلاً للدولة ورأساً لها ، والمقصود بالخراب الذي يصيب الأمير هنا خراب الدولة ذاتها فهو يفصل الأخلاق الخاصة عن الأخلاق العامة فصلاً تاماً ، وقد جرت عادة الكتاب والشعراء أن يشيدوا بكرم الأمراء ، ولكن ماكيافلي يخالفهم في ذلك وعنده أن صفة الكرم في الأمير غير جديرة بالمدح ، لأنه ينفق أموال غيره ولذلك يؤثر البخل في الأمراء ، ولا يجمل عنده بالأمير أن يكون كريماً إلا في توزيع أسلاب الحرب ولكن أيهما أجدى على الأمير أن يوصف بالرحمة أو بالقسوة والوحشية وأن يكون محبوباً أو مكروهاً ؟ وبوجه عام خير للأمير أن يوصف بالرحمة ولكنه يجب عليه ألا يسئ استعمالها ، فقسوة شيزاري بورجيا في رومانا وحدثها وساقته إليها الهدوء

وليس هذا كل ما فى الأمر ، فإنه ليس من اللازم للأمير أن يكون متصفاً بكل الصفات الحسنة ولكن من ألزم ما يلزم له أن يتظاهر بالتحلى بها ، ويقول ما كيا فى « إني أجتري على القول بأنه مما يضر بالأمير أن يتصف بهذه الصفات (الحسنة) وأن يعمل بموجبها فى حين أنه من النافع له أن يبدو متحلياً بها » أى يبدو مثلاً رحيماً صادقاً متديناً على أن يضع نصب عينيه التخلّى عن هذه الصفات حينما يستوجب الأمر العمل بنقيضها ، والأمير الجديد بوجه خاص لا يستطيع ممارسة هذه الفضائل لأنه فى سبيل المحافظة على الدولة مضطر إلى أن يأثم فى حق الإنسانية والدين والفضيلة ، ولذلك من الملائم أن يكون عقله قلباً وأن يراقب مهاب الرياح ويعرف كما يقولون من أين تؤكل الكتف .

ولا نزاع فى أن هذه النصائح والتعاليم التى يهدها ما كيا فى لأمره تبدو فظيعة مستنكرة ولكنها فى الواقع تأكيد لكل ما لاحظته فى تجاربه السياسية ومخاطبته للأمراء والملوك فى عصره ، وهى لا تخرج عن تكرير القول فيما يردده على الدوام رجال السياسة وهو أنهم لا يستطيعون أن يقولوا الحق وأن عليهم أن يخفوا ما فى نفوسهم وما ينتون عمله وإذالم يسلكوا هذا المسلك عرضوا أنفسهم ودولتهم وأحزابهم للخطر الشديد ، والأحوال السياسية التى كانت سائدة فى عصر ما كيا فى وما تزال سائدة إلى اليوم فى معظم أنحاء العالم تستوجب ما قاله ما كيا فى ، وليس السياسى رجلاً فرداً يخاطب رجلاً فرداً مثله وإنما هو مجموعة أفراد ممثلة فى إنسان فكلماته تختلف قيمتها وأهدافها وتأثيرها عن كلمات غيره من الناس العاديين ، ولا نزاع فى أن هناك سياسة أمينة صادقة وسياسة خائنة غادرة ولكن الذى شغل ما كيا فى فى كتاب الأمير هو « فن السياسة » الذى استأثر بالكثير من تفكيره وإطلاعه وبخاصة فى التاريخ ، وقد استخلص من تفكيره وتجاريبه أن واجب الأمير

يخبرون عقول الناس بالمكر والدهاء ونجحوا فى النهاية نجاحاً لم يظفر بمثله الأمراء الذين اتبعوا الشرف والأمانة » ويمضى ما كيا فى فى تقديم النصائح القاسية قائلاً « عليك أن تفهم أن هناك طريقتين للحرب ، وهما اتباع القانون أو استعمال القوة ، والطريقة الأولى طريقة الإنسان والطريقة الثانية طريقة الوحوش ، ولكن لما كانت الطريقة الأولى فى الأعم الأغلب تثبت أنها غير كافية فعلى الإنسان أن يلتزم الطريقة الثانية وبناء على ذلك يلزم أن يعرف الأمير كيف يجيد أن يكون وحشاً وأن يكون إنساناً ، وقد علم الكتاب القدماء الأمراء ذلك بطريق المجاز حينما وصفوا لهم كيف أرسل أشيل وكثيرون غيره من الأمراء إلى شيرون ليتولى تنشئتهم وهو مخلوق نصفه إنسان ونصف حيوان ، ومعنى هذا المجاز أن الأمير عليه أن يعمل بموجب الطبيعتين وأن لا بقاء له إن لم يفعل ذلك » .

وعلى الأمير أن يتعلم من الثعلب ومن الأسد ، لأن الأسد لا حيلة له مع الشباك التى تنصب لاصطياده كما أن الثعلب لا يستطيع مقاومة الذئب ، ولذلك يحسن بل يجب فى رأى ما كيا فى أن يكون الإنسان ثعلباً ليعرف الشباك وأن يكون فى الوقت نفسه أسداً ليخيف الذئب والذين يسلكون على الدوام مسلك الأسود أغبياء ، ولذلك يوصى ما كيا فى الأمير ألا يحترم وعده ولا يفى بعهده إذا كان ذلك يعرضه للخطر ، ولو كان الناس جميعهم أحياناً لكان من الخطأ اتباع هذه النصيحة ، ولكن الناس أشرار مناكيد لا يفون لك بعهودهم فلست فى حاجة إلى المحافظة على عهودهم ، ويوصى ما كيا فى الأمير مع ذلك ألا يكون صريحاً فى ذلك فيقول « على الإنسان أن يعرف كيف يصفى الألوان على أعماله وأن يكون بارعاً فى الكذب والغش » ويضرب مثلاً لذلك البابا إسكندر بورجيا معاصره الذى كان يجد على الدوام فريسة لكذبه وغشه .

الشعب بإقامة الحفلات والمعارض ، ونرى من ذلك أن ماكيافلى يضع عنصر التجارة والصناعة وإقامة الحفلات والاحتفالات فى مستوى عناصر الحكم الأخرى ، ولكنه لا يشير بكلمة إلى التقدم الاجتماعى ، والكلمات القليلة التى تحدث فيها عن التجارة والصناعة تبين فرط اهتمام الرجل بالمسائل السياسية واشتغاله بدراسة الوسائل الكفيلة بالمحافظة عليها .

وفى الفصل التالى يتناول ماكيافلى مشكلة اختيار الوزراء والمساعدين وعمال الإدارة وفى هذا الاختيار تتجلى حكمة الأمير ، ويقول ماكيافلى أن من الناس من يستطيعون فهم الأشياء بضوء ذكائهم وهؤلاء لا يحتاجون إلى من يتولى تبصيرهم بحقائق الأمور ، ومنهم من لا يستطيعون أن يفهموا الأشياء بأنفسهم ولا بمساعدة الغير وهؤلاء غير الموقفين ، وهناك فريق ثالث وهم هؤلاء الذين لا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم فى فهم الأشياء ولكنهم يستطيعون أن يقدرُوا ما فى آراء الغير من الصواب . والأمراء من هذا الطراز يحسنون من ناحية مراقبة وزرائهم ومن ناحية أخرى يفيدون من نصائحهم وعلى الأمير أن يكرم الوزير إذا أخلص فى خدمته وتحرى مصلحته ، وإذا حسنت العلاقة بين الأمير ووزرائه عاد ذلك بالخير الكثير على الدولة ويوصى ماكيافلى الأمير بإبعاد المتملقين وأن يختار حاشية من العقلاء الذين يصدقونه القول ويمحضونه النصيح ، على أن يزن آراءهم بميزان تفكيره الخاص ويأخذ بما يراه أقرب إلى الرجحان والأصالة وماكيافلى مع تقديره للدور الذى يلعبه الحظ فى الحياة البشرية يرى مع ذلك أن إرادة الإنسان الحرة لها مكانتها التى لا يمكن المماراة فيها ، فإذا كان الحظ مسيطراً على نصف أعمال الإنسان فإن السيطرة على النصف الثانى زمامها فى أيدينا ، ويرجع ماكيافلى تقلب حظ الأمراء بين الإقبال والإدبار إلى نقص التوازن بين صفاتهم وطبيعة الأزمان لأن الزمن يتغير فى حين أن الناس لا يستطيعون

الأسمى هو المحافظة على كيان الدولة وأن الوسائل المؤدية إلى ذلك جميعها مشروعة ومباحة . ويرى ماكيافلى فى الفصل التاسع عشر من كتابه أن خير ما يقبى الأمير شر المؤامرات هو تجنب إغصاب شعبه ، وذلك لأن المتآمرين عليه يظنون دائماً أنهم يقتله يرضون الناس ، فإذا قدرُوا أن قتله يثير نقمة الشعب أحجموا عن ذلك ، والأمير الذى ظفر بحب شعبه وثقته به يستطيع أن يأمن خطر التآمر عليه ، ولكن إذا كان الشعب ناقماً على الأمير كارهاً له فإنه سيخاف كل إنسان ويخشى كل شئ ، وفى الدول الحسنة التنظيم كان الأمراء العقلاء يتحرون استرضاء الأشراف واستمالة الشعب ، ويشيد ماكيافلى بحسن نظام الحكومة الفرنسية فى عهده لوجود برلمان بها له سلطة ، ويرى ماكيافلى أن هذا البرلمان كان يمكن الملك من ارضاء الشعب من ناحية ويحد من صولة الأشراف من ناحية أخرى دون أن يعرض الملك لغضبهم ، ويستخلص ماكيافلى من ذلك نصيحة يقدمها للأمير وهى أن يكل إلى غيره من مندوبيه تنفيذ الإجراءات المكروهة ويتولى هو بنفسه توزيع المنح والعطايا . وفى الفصل العشرين يتحدث ماكيافلى عن بناء الحصون وهو يقر سياسة إقامة الحصون فى وجه المغير على البلاد ولكنه مع ذلك يرى أن الأمير الذى يخشى شعبه هو الذى يحرص على بناء الحصون ، أما الأمير الذى يخشى الهجوم على بلاده من الخارج فإنه لا يعنى بها ، وخير حصن للأمير هو تجنب كراهة الشعب . وفى الفصل الواحد بعد العشرين يوجه ماكيافلى التفاتة نادرة فى كتابه إلى عامل آخر من عوامل المجتمع الإنسانى غير الحرب والسياسة ، وذلك حيث يوصى الأمير بتقدير المواهب وتشجيع الأكفاء وتكريم مهرة الصناع وتشجيع المواطنين لتمكينهم من متابعة أعمالهم سواء كانت تجارية أو صناعية أو غير ذلك من المهن ، وألا يثقل كاهلهم بالضرائب ، وأن يعنى بالترفيه عن

تغير طبائعهم ومن ثم من سره زمن قد يسىء إليه زمن آخر .

ويحتم ماكيافلى كتابه بفصل هيب به بأسرة المديتشى ليقوم أحد أفرادها بدور الأمير فى الحدود التى وصفها فى الكتاب ، ويؤكد أن العصر مهياً ليقوم هذا الأمير البطل الحازم ، وأن الحالة السيئة التى تردت فيها إيطاليا ستكون اختباراً لكشف معدن هذا الأمير وبرهاناً على كفايته فى علاجها ، وأن إيطاليا متطلعة إلى هذا الأمير الذى يأسو جراحها ويجمع شملها وينقذها من الهوان والفوضى ، وهى مستعدة للسير تحت لوائه متى رفع هذا اللواء ويوصى أسرة المديتشى باغتنام الفرصة لقيادة هذه الحركة والظفر بهذا المجد ويقول فى كلمته الأخيرة « هناك علامات هائلة تنذر بقرب وقوع تغيرات عظيمة ، والظروف جميعها مواتية لعظمتكم ، وعليكم أن تقوموا بإتمام الجزء الباقي فإن الله لا يريد أن يجردنا من الإرادة الحرة » ويقول المؤرخ الإيطالى فيلارى عن هذا الفصل الذى ختم به ماكيافلى كتابه « إنه سيظل من الآثار الخالدة فى تاريخ الأدب الإيطالى » .

وقد استطاع ماكيافلى أن يبسط آراءه السياسية فى صورة واضحة محددة لتمثلها فى شخصية الحاكم المصلح والأمير الذى يجدد حياة الدولة ، وقد أوجت إلى ماكيافلى صورة هذا الأمير الأمثلة التى لحظها فى التاريخ القديم مثل رومالاس وليكارجاس وسولون والأمثلة الحية التى رآها فى عصره مثل فرانسيسكو سفورزا وشيزارى بورجيا بوجه خاص وفرديناند الكاثولىكى ، وقد أراد ماكيافلى أن يفرض الاقتداء بصورة البطل الذى تصوره منقذاً لإيطاليا على أسرة

المديتشى ولكنه كان حالمًا فقد كانت أخلاق الإيطاليين فى عصره قد تغلغل فيها الفساد ولم تكن أسرة المديتشى أهلاً لفهم نبالة قصده وسمو فكرته ، ولم تتم الوحدة الإيطالية التى كانت معقد آمال ماكيافلى إلا فى القرن التاسع عشر .

وقد اتبع ماكيافلى فى تأليف كتاب الأمير تقليداً كان سائداً فى عصره ، وكان يسمى هذا النوع من الأليف « مرآة الأمراء » ولكنه كتب الكتاب فى أسلوب مستحدث خرج به على تقاليد العصور الوسطى والتفكير المدرسى ، وكان ما يكتب فى هذا الموضوع قبله يغلب عليه الطابع الدينى والنزعة الغيبية ، أما ماكيافلى فقد نبذ اللاهوت والمثالية واتجه اتجاهاً علمياً واقعياً ، وكان هذا الاتجاه العلمى الواقعى يمارسه أهل عصره فى السياسة ولكنهم لا يمارسونه فى الكتابة عنها ، ولم يزد ماكيافلى عن أن عبر فى كتابه عن واقعية عصره ونزعه فى السياسة والأخلاق ، وقد استغل مواهبه الأدبية والسياسية فى التعبير عن شىء كان سائداً فى عصره ولكن لم يسبق تقريره ولقد كان جريئاً فى الخروج على الآداب المثالية التى كانت تشغل بال أنصار النزعة الإنسانية ولعل أهم نقد وجهه إلى ماكيافلى أنه أقام آراءه على سوء الظن بالطبيعة الإنسانية ، والمذهب الذى يقوم على ناحية واحدة من الطبيعة الإنسانية عرضة للخطأ مثل مذهب روسو السياسى الذى أقامه على حسن الظن بالطبيعة الإنسانية ، والحقائق أكثر تعقيداً وطبيعة الإنسان تحوى الخير والشر ، على أن ما لحظه ماكيافلى كان صادقاً كل الصدق عن عالم كالعصر الذى عاش فيه وتقدير ماكيافلى واتجاهاته يستلزم على الدوام أن ننظر إليه فى إطار عصره .